# في بلاط الخليفة

رواية

اسم الكتاب: فى بلاط الخليفة
تأليف: محمد إبراهيم
تصحيح لغوى: عزة أبو الأنوار
رقم الإيداع: 2014/19844
الترقيم الدولي: 978-977-6376-69-4

***

إشراف عام:
محمد جميل صبري
نيفين التهامي

دار كيان للنشر والتوزيع – 22 ش الشهيد الحي بجوار مترو ضواحى الجيزة – الهرم
محمول: 01005248794 – 01001872290 – أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com - info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

© جميعُ الحقوقِ محفوظةٌ، وأيُ اقتباسٍ أو إعادةِ طبع أو نشر في أي صورةٍ كانتْ ورقيةً أو الكترونيةً أو بأيةِ وسيلةٍ سمعية أو بصريةٍ دون إذن كتابي من الناشـر، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

# في بلاط الخليفة

محمد إبراهيم

رواية

إهداء

إلى أبي الذي لم يحرمني شيئًا إلا حلمًا قديمًا بأنْ أكون أفضل أب في الكون ؛ استاثر به إذ صار هو

إلى أمي التي اصطحبتني إلى عالم الأدب السحري بمجموعة قصص مصورة قرأتها علي مسامعي يوم كنت طفلًا فأصبحت "أنا"

إلى أختي "منار بيتنا" و إلى أخي "آخر العنقود"

إلى طيفٍ نقي يجتاح الدروب فيأسر الألباب بصفائه

إليهم جميعًا أهدي كلماتي .

# شكرًا

- عظيم الشكر و العرفان و التقدير إلى روح الراحل الذي لا زال يحيا بيننا بإبداعاته تتصدرها ملحمته الإسلامية الكبرى التي أضافت لي و لهذا العمل الكثير الرائع "علي أحمد باكثير"

- إلى من أثر بكلماتي و فكري كما لم يؤثر أحد العبقري "د. أحمد خالد توفيق"

- و إلى من اختصني بشرف تأطير روايتي بكلماته "أ.د بكر ذكي"

- و إلى من شجعني أن أمضي في عالم الأدب "الشاعر: أسامة عامر"

- إلى معلمي و أستاذي" د. وليد عبد المنعم"

- و إلى الأزهري -كما ينبغي للأزهري أن يكون- " د. مصطفى أبو زيد "

- إلي صناع كيان " محمد جميل و نيفين التهامي" علي ما منحاه لهذا العمل من دعم و تقدير

- إلى تلك العلامات الفارقة بحياتي خالص الشكر ، و إليك أيضًا يا من تقرأ كلماتي .

# توطئة

سبحان من فتق ذهن هذا الفتى عن هذه الكلمات، وطيب الجمل والعبارات، فوهبه القدرة على صياغة تاريخ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صياغة أدبية، جمع الكاتب القصة فأوعى، وعبر، فكان في تعبيره عبرة، أحسن النظم، بعد شد العزم، وجمّل الجمل بالخيال الساحر، وليس فيما كتب أي من الإساف، بل جمع حبات الدرر، وضم من الشوارد ما انتثر، ونظم العقد كأفضل ما يكون الصائغ، وجرت المعاني في الألفاظ جريان الماء في الدقائق، حسنت عنده العبارات والتراكيب وازدانت بإيراده بكثير من الأعاجيب، دل إيجازه على إعجازه، وقيد شوارد الوقائع بحس بارع، عاش مع التاريخ ستين عامًا أو يزيد، وليس وراء ما كتب مزيد، طاف في بساتين المعرفة، ووقع على كثير من الزهر وأفنى في هذا كثيرًا من العمر، ليقدم لقرائه شهدًا رائقًا، قلَّ كلامه وكثرت معانيه، لا تلبث بعد الفراغ من القراءة أن تعود إلى البداية، لأن البداية في الدوائر هي النهاية، والنهاية هي البداية.

ومما يكسب الموضوع قوة، ويحمل على قراءته بكل قوة، أنه عالج سيرة من خير السير، وحصد من الوقائع العظات والعبر، ورزق عند المعالجة الكثير من جديد الفكر، وكم من صغير في سنه كبير في عقله! وكم من طاعن في السن قد

سلب نعمة العقل! وقد وقى الله الكاتب من زلات العقول، وسقم الأفهام، وألهمه حسن التعبير وطيب الكلام، فكانت هذه البداية التي تبشر بخير، وما هي إلا تباشير الصباح، وعما قريب نرى الفجر لاح، ومع إشراقة الشمس يكون الإيضاح.

فسِر، أيها الكاتب، على مهل، واحرص على عدم العجل، ولا تكف عن الكتابة بدعوى الوجل، فغدًا ستُطلَب بعد أن كنت طالبًا، وتُقصَد بعد أن كنت قاصدًا، وأبشر بغدٍ مشرق، فأول الغيث قطرة ثم ينهمر، وفيك وفي أمثالك كبير الأمل. حفظك الله ورعاك وسدد على طريق الخير خطاك والسلام.

أ.د بكر زكي عوض

عميد كلية أصول الدين بالقاهرة

# افتتاحية

"اللهم نصرًا كنصر اليرموك"، يرددها قلبه خاشعًا وقد قلّب بصره في الطريق، علّه يجد طيفًا حاملاً بشرى النصر، بشرى قد وجد ريحها وينتظر خبرها.

تراه يتحيّن القادم من أرض القادسية، وكأنما هو آخر أمله في الحياة، يلهج إلى الله بدعاء فريد وعين خاشعة، سائلاً النصر طوال ليله ويتأمل الصحراء وقد ألهبه شعاع الشمس ولفحه القيظ في يوم عسير.. جد عسير.

كل صباح تبصره هناك لا يلوي على أحد ولا يعنيه في شيء ما لاقاه من عنت.

إلى أن رآه من بعيد، فارسًا قد انطلق جواده في زهو لا يحمله إلا منتصر، وبشرى تكاد ملامح وجهه تزفّها جلية واضحة كشمس مزهوّة في صباح جميل، ولكن كلمة ينطقها فمه هي أقصى أمله ومبلغ غايته.

- هل لك أيها الشيخ أن تخبرني أين أجد أمير المؤمنين؟

- بربك! ماذا فعل المسلمون في القادسية؟

يستقبل خبر النصر، فيكاد قلبه ينبض بكلمات الحمد والشكر لله على نعمائه، ويصطحب صاحب البشرى إلى حيث التف حوله الناس، مرددين همهمات تجلّى بعدها للفارس

شـأن الرجـل، فـتراه ترجّـل يراقـب ذاك الـذي اكتـسى بـرداء ملأتـه الرقـع، ذاك الـذي دحـرت جيوشـه جنـد فـارس وأذاقـت الـروم الويـلات، فلقـد أدرك الفـارس لوهلـة أنـه في المـكان الـذي قلـب موازيـن الدنيـا وغـيّر نواميـس الكـون.

إنه في البلاط.. في بلاط الخليفة!

## -١-

امتدت صحراء جزيرة العرب مترامية الأطراف وقد تلألأت رمالها الذهبية تحت ضوء الشمس، وبينما ازدانت مكة بثوب جديد استعدادًا لموسم الحج، إذا بالوفود قد ولّت وجهها شطر سوق عكاظ على بُعد خطوات منها، لتعرض بضائعها وتفاخر بشعرائها.

ولكن على الرغم من الهدوء الظاهري الذي لفّ أيام السوق الأولى، فإن الدلائل أكدت أن السوق ستجيء مختلفة هذا العام، فها قد بدأ صراع خفي بين المسلمين من جهة، وزعماء قريش من جهة أخرى، ووضح جليًا أن الصراع سينحو نحوًا مختلفًا هذا العام بالتحديد.

فالمسلمون لن يتركوا فرصة كهذه لنشر دعوتهم، حيث اجتماع القاصي والداني، وزعماء قريش لن يجازفوا بتركهم يصولون ويجولون بحرية لنشر الدين. ووسط هذه الأجواء المشتعلة لم يكن الحديث بين فتيان قريش لينأى كثيرًا عن هذا الموضوع، موضوع شغل مكة كلها.. بل العرب جميعًا.

*****

تعالت الأصوات والصيحات في تلك البقعة المزدحمة من سوق عكاظ، بينما تعلقت الأعين ببعض الشبان.. هؤلاء الذين تباروا في إبراز قواهم في صراعهم المحموم، وفي موقع بارز ضم عِلية القوم، جلس ذلك الشيخ الوقور الذي ارتسمت على وجهه حكمة السنين، بينما مال نحو ذلك الضخم بجواره وهو يقول برزانة:

- أرى أن ليس للمصارعة معنى هذا العام.. ألا توافقني الرأي يا أبا الحكم؟

فطن أبو جهل لما رمى إليه الشيخ، فابتسم ليقول بمكر:

- وما الذي ينقصها يا عديّ؟ ألا يعجبك ذلك البدوي؟! أشار بإصبعه إلى ذلك البدوي، الذي علا نجمه هذا العام، بينما التفت بعينيه ليرى رد فعل عدي، الذي قال بهدوء:

- ماكر كعادتك يا عمرو، وهل يغني ذلك البدوي عن عمر؟ لكم يدهشني ذلك الفتى!

نظر إليه عمرو بن هشام، ليرد باستخفاف حاول ألا يبديه:

- ومن لم يعجب بعمير وبقوته في قريش كلها؟!

تجاهل عدي أسلوبه ليقول بدهاء واضح:

- إذن، فلك الفخر كل الفخر به.

ثم التفت ليرى نظرات الغضب في عيني عمرو قبل أن يعقّب قائلاً:

- صدقني يا عمرو، إن فخرك به لا يقل أبدًا عن فخره بخاله أبا الحكم بن هشام، سيد قريش.

راق ذلك الإطراء الأخير لأبي جهل، وإن شابه ذم واضح، لكنه تكفّل بإرضاء عمرو، الذي تنهّد في ارتياح وغبطة، تاركًا عُدي يجول ببصره بين الشبان، ولكّن فكره أبدًا لم ينشغل بهم، بل بذلك الذي شغل العقول والألباب، عمر.. عمر بن الخطاب.

*****

مكة كعادتها أيام سوق عكاظ تستعد لأضيافها القادمين بعد أيام، وسوق عكاظ كذلك لا تتغير، بل تزداد ازدهارًا وبريقًا، فتضج بروادها نهارًا وتكتظ بالسمر ليلاً. فكما يتشاور الزعماء ممن خبروا أمور السياسة وفنون الكلم في أمور مكة، جلس خالد وعمرو وسعيد في أحد أسمارهم، وقد بدا الغضب على محيا خالد، الذي صرخ قائلاً

- لكم أبغض محمدًا هذا! لقد سفه كل شيء؛ ليت أمره ينتهي.

رمقه عمرو بنظرة هازئة، وهو يقول بعبث

- ينتهي.. ست سنوات منذ أن بدأت المشكلة الكبرى ومن يومها ومحمد يزداد قوة و...

قاطعه خالد غاضبًا: أي قوة تلك في أقل من أربعين رجلاً؟! أجننت يا ابن العاص؟!

- لا تخدع نفسك يا خالد، أنت تعلم مثلي أن أمر محمد هذا ليس أمرًا عاديًا، ألا ترى أتباعه ينقادون له ويسلمون له أمرهم؟! لو انتشر هذا الأمر حقًا، لضاعت مكانتنا بين العرب.

قالها عمرو بهدوء، قبل أن يعقب سعيد قائلاً:

- مهلاً مهلاً يا رفاق،لقد قتلنا هذا الأمر بحثًا؛ دعونا الآن نسأل:

- أين ذهب عمر؟

التفت إليه خالد ليقول بمرح:

- عمر.. أين ذهب ذلك المخادع؟ لقد اختفى قبل بدء السوق.. أما سمعتم شيئًا عن هذا الاختفاء المفاجئ؟

رأى عمرو في الأمر متنفسًا مرحًا، فقال ضاحكًا:

- أراه قد علم بذلك البدوي، ففر هاربًا و...

لم يكد يكمل جملته حتى شعر بكف غليظة ربتت على كتفه، فنظر إلى ذلك الذي وقف خلفه بطوله الفارع وجسده الضخم ورأسه الأصلع.

- عمر.. أين كنت؟

قالها عمرو وهو يتفحصه وما عليه من أثر التعب، ليجيبه بقوله:

- لقد كنت أمارس إحدى مهام عملي في السفارة.. ولم أكن هاربًا يا ابن العاص.

التفت إلى عمرو باسمًا، قبل أن يتابع:

- ثم مَن هذا البدوي الذي كنت تتحدث عنه يا عمرو؟

تأمله سعيد وهو يقول بهدوء:

- دعك من هذا الآن، ولتجلس لتقص علينا أين كنت وماذا فعلت.

وقد كان عمر بالفعل ينتظر مثل هذه المقولة، فألقى بجسده على أقرب مجلس وبدأ يقص الأمر.. ومن البداية.

***

مضت الأيام سراعًا وانقضت سوق عكاظ، وعلى الرغم مما شابها من أحداث ومن أنها جاءت مختلفة هذا العام، لكن أحدًا لم يكن ليتوقع أن تنتهي نهاية كتلك التي كانت. فها هي مكة تودّع أضيافها ما عدا من بقي منهم للحج، وقليل ما هم. وفي هذه الأثناء سار ذلك الشيخ الوقور الذي لفحته شمس الصحراء بالحكمة واصطنعته رمالها بالبصيرة، يمضي بخطوات هادئة ورصينة نحو دار الندوة، ليلقى رفاق الشيخوخة، وإذا بهذا الراعي يستوقفه ليقول بحماسة غامرة:

- أتعرف ذلك الفتى الذي كان يصارع بالأمس يا سيدي عدي؟

لفتت عبارته انتباه عدي، الذي نظر ليقول باهتمام واضح:
- أتقصد عمر؟ ماذا حدث له؟

أدرك الراعي أن الشيخ لا يعرف بالأمر، فدفعه ذلك لأن يتابع بحماسة:

- لقد ألقى بمكة في طوفان من الحيرة والشك؛ لقد أسلم عمر !

وعلى الرغم مما حمله القول من أثر بالغ على الشيخ، فإنه لم يبدِ ذلك على قسمات وجهه ولم يزد أن أرسل بصره إلى السماء وهو يقول بهدوء:

- أما والله ليوسعنهم خيرًا، أو ليوسعنهم شرًا.

*****

- ما لهذه الأيام العجاف التي نمر بها! ما لنا نتراجع يومًا بعد يوم.. ومحمد يزداد قوة وبأسًا! فبالأمس حمزة، واليوم عمر، ومن قبل ابن أبي قحافة، وعثمان، وسعيد بن زيد.. وغيرهم الكثير والكثير.. آه.. إن رأسي سينفجر.. ماذا أفعل الآن؟ مجدنا قارب على الزوال.. شمسنا ستغرب عن العرب.. شمس مكة التي طالما أضاءت السبيل ستأفل عن العرب، وكل هذا بسبب رجل! أي رجل؟! محمد هذا ليس رجلاً عاديًا.. فلتغثنا الآلهة!

آلهـة؟! لقـد بـدأت أشـك في كل شيء.. ويحـك يـا خالـد! لا تتراجـع.. اثبـت ودافـع عـن المجـد.. مجدنـا ومجـد قريـش و...

- كنت أعرف أنني سأجدك هنا.

انتزعـت الجملـة الأخـيرة خالـد مـن فكـره، لينظـر إلى القـادم الـذي لـم يكـن سـوى عمـر.

- تجدني هنا! أهلاً بالصابئ.

- أهلاً بالغافل.

- ماذا دهاك؟!

- بل قل ماذا هداك!

- هداك؟! لقد حطمت بحماقتك كل شيء.

- بل أدركت كل شيء.

- كفاك يا عمر.. ارجع.

- بـل سـأتبع الحـق.. لقـد تجلّـت الحقائـق يـا خالـد.. ثـم مـا لي أراك غاضبًـا؟! (مبتسـمًا) مـا أراك إلا متبعًـا مـا اتبعـت!

- أأتبعك في ضلالك؟

- بـل في طريـق الهـدى والنـور.. عندمـا تـزول السـتائر عـن البصائـر سـترى الحـق حقًّـا.

- أرى هـدوءًا وسـكينة لـم أعتدهـا منـك، هـل خـار عزمـك وذهبـت قوتـك؟

- إنـه الإسـلام يـا خالـد، عمـر الأمـس هـو عمـر اليـوم، لكنـه

الإسلام هو من أحسن توظيف شدتي وليني.. أشعر بالنور ينبت في قلبي ويضيء نفسي.. لقد وصلت للحق يا خالد ولن أحيد عنه، ولو وقف في طريقي العرب جميعًا، ولو حتى كِسرى وقيصر. لقد خرجت شعلة النور من أعماق الظلمة ولن تنطفئ أبدًا.

قالها ثم انصرف تاركًا خالد في ظلمات الحيرة وقد أظلمت الدنيا أمامه.. تمامًا.

-٢-

لم يكن حدث كإسلام عمر ليمر بهذه السهولة، هو نفسه لم يرضخ لعقله وقلبه إلا بعد جهاد طويل، يتشجع مرة ويحجم مرات. حتى كانت هذه الليلة التي بدا فيها القمر مكتملاً مضفيًا على السماء سحرًا وبريقًا، في حين جلس عمر يتأمله لبرهة، ثم ألقى بعدها نظرة على هذا الوثن، الذي أضفت عليه انعكاسات المصباح شعورًا بالرهبة ولم يلبث عمر أن نظر مرة أخرى إلى القمر وظل كذلك حتى قارب الفجر.

وإن بدا هادئًا، إلا أن صراعًا عنيفًا كان قد اعتمل في عقله الذي ردد بصوت هادئ، وإن أبى لسانه النطق به:

- شتان بين هذا وذاك.. إله في الأرض وآخر في السماء! هذا نوره النار وذاك نوره نور السماوات والأرض.

بينما انبعث من عقله صوت انساب عميقًا وتردد في نفسه:

- كلا.. الأمر ليس كذلك يا عمر.. بل أحدهما الحق والآخر الباطل.. يا إلهي! يكاد عقلي يجن. لم تهرب من الحقيقة يا عمر؟! كلا لن أؤمن لمحمد.. بل.. لا أدري.

اتجه بخطوات هادئة -لا تدل على ما بصدره- نحو

المصباح ليطفئه، ثم نظر نظرة ذات معنى إلى القمر الذي توسّط السماء، وقد علت الحيرة نفسه، بينما كانت ملامح وجهه كتمثال قُدّ من صخر أبت أن تشي بما يدور في عقله.

لفت انتباهه الصوت الهادئ للنبي -صلى الله عليه وسلم- وهو يتلو القرآن. وبلا إرادة تامة، استتر بساتر كي لا يزعجه وبدأ يستمع.

- ويحك يا عمر، أجننت؟! ما هذا الذي تسمعه؟

- «إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ».

انتفض كعصفور مبتل وهو يتراجع خطوة:

- كلا.. هذا.. هذا قول شاعر.

- «وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلاً مَا تُؤْمِنُونَ».

تراجع خطوة أخرى وقد اختلفت مشاعره:

- إذن فهو كاهن.. ما محمد إلا كاهن.

- «وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ».

تراجع ثالثة وقد ظهر على محياه ملامح الدهشة: ما هذا إذن؟!

- «تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ».

بدا في هذه اللحظة كجماد من فرط الذهول والقرآن الكريم ينساب إلى أذنيه وتوقفت للحظة المشاعر المتناقضة، والرسول يتلو في هدوء وقوة:

- «وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ * وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ * وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ * وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ * فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ *».

زلزال ذلك الذي هز عمر وجعله يتراجع عشرات الخطوات وشعر بدموع عينيه تغادر محجريهما، ولكنه حاول باستماتة أن يتماسك وينصرف، إلا أنه -بلا وعي- انتظر حتى خرج الرسول، صلى الله عليه وسلم.

- ها هو محمد وعن قرب هذه المرة.

انتظر من الوقت ما لا يعلمه إلا الله حتى رآه خارجًا، لم ينتبه له الرسول -صلى الله عليه وسلم- فسار بخطى هادئة ومن ورائه عمر، أحس النبي -صلى الله عليه وسلم- فالتفت وقد بدت الدهشة على محياه وهو يتطلع إلى وجهه، قبل أن يقول:

- عمر! أفلا تتركني لأرتاح ليلاً أو نهارًا؟

أحس عمر بالخجل من نفسه، وهو يري النبي -صلى الله عليه وسلم- يمضي ثانية، فتأمله وهو يقول في طي نفسه:

- ما حملك يا محمد على هذا؟ ما حملك على عداوة قومك؟!

شعر بدموع تنساب من عينيه، فحاول أن يتماسك ثانية، ولوهلة تحوّلت ملامح وجهه إلى الحزم والصرامة وهو يتابع:

- قسمًا بإلهي، أينما كان، وكيف كان، إن لم يهدني ربك يا محمد إليه لأقتلنك.

قالها وهو يعلم في قرارة نفسه أنه لن يتراجع.. أبدًا.

*****

داعبت الأشعة الذهبية لضوء الشمس ملامحه، فانتبه من نومه ليلتفت حوله بدهشة.. لم يدرك كيف ولا متي استسلم للنوم. إلا أن كل هذه الأسئلة زالت ولم يبق في ذهنه سوى ما عزم عليه بالأمس.

كل شيء على ما يرام إذن، سيفه مستعد لينهي الأمر برمته، خطواته راسخة ثابتة لن تلين هذه المرة.

- بنو هاشم ؟! هذا ما كنت أستتر خلفه ولكن الحقيقة أنها نفسي.. نفسي فقط هي من كانت تمنعني ولكن الآن هيهات.. هيهات.. ليس بيني وبينك يا محمد سوى حد السيف.

بدت خطواته ثائرة قوية، وبدا في عينيه اللتين تتقدان شررًا وشع منهما بريق إصرار عجيب، كل شيء يدل على أن اللحظات القادمة ستحمل حدثًا جللاً رهيبًا.

- كيف حالك يا عمر؟ لم أرك منذ زمن.

- ليس هذا بالوقت المناسب يا نعيم.

قالها في طي نفسه، قبل أن يقول:

- بخير يا نعيم، كانت تشغلني بعض الأمور.

نظر نعيم بخبث، وهو يقول:

- إلى أين يا عمر؟

أدرك عمر مرماه، فقال بضيق وصبر نافد: دعني الآن يا نعيم، ستعرف فيما بعد.

- لقد عزمت إذن.

- على ماذا؟

- على ما أنت ذاهب إليه!

- إليك عني يا نعيم الآن.

- كما تريد، فلتغفل عن أهلك إذن ولتمض لشأنك.

قالها تاركًا عمر فاغرًا فاه، لينصرف، إلا أن كتفه قد طوقت بقبضة عمر الفولاذية التي أجبرته على البقاء، ليستمع إلى الصوت القادم من أعماق الجحيم:

- ما الأمر؟ أخبرني بكل ما تعرفه.

*****

ويحك يا فاطمة! ها أنتِ تفسدين كل شيء بحماقتك. فلأُنْهِ أمرها، وأمر ذلك الصابئ سعيد، ثم أنصرف إلى هدفي الأسمى. إذن فطريق أبيك اخترت يا سعيد، ولكن شتان بين من مضى لشأنه، ومن يبغي تدمير مكانتنا وهيبتنا! كلكم حمقى! لن أسمح لكم بالمضيّ في هذا الطريق، فلأنهِ اليوم كل شيء.. كل شيء.

طرقات متواصلة، بها كاد الباب أن يتهاوى، وصوت عمر مزمجرًا يعلو ويعلو، وخباب لا يدري ماذا يفعل وهو ينظر نظرة خاوية إلى سعيد وهو يقول:

- إنه عمر.. أجل إنه عمر.

- اهدأ يا خباب واختبئ هناك ولا تقلق.

تحرك خباب مسرعًا، وهو يردد بهستيرية حقيقية:

- ويحي! ويحي! إنه عمر.. عمر.

تحرّك ليتوارى في إحدى الغرف، قبل أن تتجه فاطمة مسرعة نحو الباب الذي لم تكد تبلغه حتى تهاوى، ومن خلفه عمر وهو في أسوأ صورة تراه عليها في حياتها.

هربت الابتسامة التي حاولت أن تصنعها على وجهها، وتوقفت الكلمات في حلقها، وعمر يتقدم بحزم قبل أن يدفعها، متجهًا إلى سعيد، وقد راقبت فاطمة الأمر بحذر.

- أصبئت يا سعيد؟!

- لقد اتبعت الحق يا عمر.

- ماذا تقول؟

- لقد اتبعت الحق يا عمر، افعل ما بدا لك و...

صرخت فاطمة. ففي ثوانٍ معدودة، كان عمر يعلو زوجها الملقى على الأرض ويكيل اللكمات إلى وجهه الذي انفجرت الدماء منه، لم تدر فاطمة إلا وهي تحاول أن تحرك عمر، ولكن هيهات أن تحرك ذرة من هذا الجبل الذي فجأة ومن دون مقدمات وقف ليلتفت نحوها، وقد بدت كل ملامح الغضب والثورة في وجهه، فلقد توقع عمر ما فعلته، بل كان ينتظره، وكأنما كان هدفه الذي جاء من أجله، فوقف وجهًا لوجه أمام أخته متجاهلاً زوجها الذي لم يعد يحرك ساكنًا من جسده، وقد بدا كجثة هامدة.

- أصبتِ يا فاطمة؟

- لقد اتبعت محمدًا يا عمر.. اهدأ يا أخي واستمع لي.

لم تكد تكمل حتى انتبهت بعد ذهول إلى ما حدث. لقد لطمها عمر، الذي لم يكن ليوجه نحوها ولو قولاً يسيء إليها. تجاهلت الدماء التي سالت على خدها وهي تلتفت إلى عمر وتقول بحزم:

- لقد أسلمت يا عمر.. ولن أحيد عما فعلت؛ افعل ما بدا لك.

أيقظت عبراتها عمر، الذي انتبه فجأة إلى ما فعله، نظر إلى سعيد، ثم تأمل وجه أخته.

- هل هي فاطمة حقًا؟! ماذا حدث لها؟! ما الذي حوّل

تلـك الوديعـة الهادئـة إلى وحـش كاسر كالـذي يـراه؟!

أحـس فجـأة بأنـه يتراجـع وأنـه في أضعـف المواقـف الممكنـة. لقـد بـدأ يتراجـع، بـل قـل ينهـار.. ولكـن كلا.. لـن يحـدث شيء مـن ذلـك. تحـرك بآليـة تامـة، ليقـول بهـدوء متجاهـلاً كل مـا حـدث:

- أين ما كنتما تقرآنه؟

تناولت الصحيفة لتلوح له بها قبل أن تقول:

- لـن تحصـل عليهـا إلا بعـد أن تقتلـني.. إنـه طاهـر.. لا يمسـه إلا المطهرون.

ثم قالت بمكر:

- اغتسل وتطهر؛ أمنحه لك.

نظر نظرة غاضبة، ثم قال محاولاً التغلب على غضبه:

- امنحيني الصحيفة يا فاطمة.

قالت بإصرار غريب:

- فلتغتسل أولاً.

هـا هـو يرضـخ لهـا، ولأول مـرة في حياتـه يسـتجيب لقولهـا. هـا هـو يقـدم تنـازلاً، هـو الأول في حياتـه ولربمـا يقـدم غـيره وغـيره.

• ويحك يا عمر! إلى أين تقودك قدماك؟

ولكـن عجبًـا، إن نفسـه لترتـاح لهـذا الأمـر كثـيرًا.. تنـاول

الصحيفـة بفـراغ صـبر.

- لـن تكـون أبلـغ ممـا قـرأت مـن قبـل.. لـن أتراجـع أبـدًا ولـن تؤثـر فيّ تلـك الكلمـات المنمقـة.. لـن ولـن ولـن.

*****

بـدا تائهًـا وإن كان سـيره أقـرب مـا يكـون إلى الصـواب.. سـار بخطـوات تعـرف الطريـق، وإن كان عقلـه لـم يعرفـه بعـد.

- أما آن يا عمر؟

تسـاءل. تـرددت التسـاؤلات، ولقـد كان عاجـزًا بالفعـل عـن الجـواب.

- أما آن أن ترسو على جزيرة الحق؟!

تأمـل المـنزل الـذي ظهـر في الأفـق.. تعـرج في سـيره كطفـل يلهـو في الطريـق.

- أما آن يا عمر؟

امتـدت الرمـال أمامـه وكأنمـا وجِـدَت فقـط لترشـده.. إلا أنـه أحـس بتيـه وضيـاع.

- أما آن يا عمر؟ لو لم يظهر محمد.. لو لم يكن عمر.

لـو ولـو ولـو وألـف لـو، ولكـن إحداهـا أبـدًا لـن ترشـده إلى الطريـق.

- أما آن يا عمر؟

تائه غريق لا يدري إلى أين يسير.

تيه وضياع وأقسى التيه تيه عن نفسك التي بين جنبيك.. ظلمة رهيبة حتى وإن علت الشمس فوق الرؤوس.

أي شمس؟! للشمس أعجز أن تضيء لتائه عن نفسه.

- أما آن يا عمر؟ إلى أين المسير؟! فلتجيبي يا سماء.. فلتجيبي يا رمال الصحراء.. ولكني سأنهي هذا الليل الطويل.. الحق هنالك، فلأتابع.. فلأمضِ وليمض الله أمرًا كان مفعولاً.. ألا إن الحق قد اتجه إلى هناك وإني لتابعه.

*****

- نعم إنه عمر.

- هل أنت واثق؟

- نعم لا شَكَّ عندي. إنه في الطريق.

نظر الأرقم إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ثم نظر إلى حمزة، الذي قال بهدوء:

- فليكن عمر. إن كان جاء بخير فمرحبًا، وإلا فسيفي في شوق لاجتزاز رأسه.

تعالى صوت الطرقات على الباب، وقد تبادل الجميع نظرات قلقة، قبل أن يومئ النبي -صلى الله عليه وسلم-

برأسه إلى الأرقم، الذي اتجه لفتح الباب، حيث طالعه وجه عمر المضيء وإن وشت ملامحه بلا شيء.

تحرك عمر بآلية تامة ليطالع وجوه المسلمين، بينما تركزت عيناه على وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- الذي فعل ما لم يتوقعه أحد. ففجأة وبلا أي مقدمات جذبه النبي جذبة عنيفة. وفي لحظة نادرة تهاوى جسد عمر.

كاد حمزة أن يتحرك.. بل كاد أبو بكر أن يتكلم.. ولقد أراد عليّ أن يكسر السكون، إلا أن كل ذلك لم يحدث. وكأنما ذابت الأفعال والأقوال وكل شيء في صمت رهيب.

سكون تام خيّم على الجميع، وكأنما توقف الزمن للحظة قلما يجود بمثلها مرة في كل جيل، قبل أن يقول النبي صلى الله عليه وسلم:

- أما آن يا عمر؟

تأمل عمر وجه الرسول -صلى الله عليه وسلم- وبهدوء عجيب انفرجت شفتاه ليقول:

- بلى، آن يا رسول الله.. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

انساب الصوت العذب إلى الآذان، ولربما عجزت العقول عن استيعابه، في حين اشرأبت أعناق أهل مكة لينظروا إلى دار الأرقم بن أبي الأرقم. حيث ولد فجر جديد، وولدت معه أسطورة، عربية هذه المرة، واسمها عمر.

عمر بن الخطاب.

## -٣-

خطـوات واثقـة تلـك الـتي سـار بهـا.. لقـد عـزم ولـن يثنيـه أحـد.. بـل لـم يعـد هنـاك وقـت للتراجـع.. فـلا منـاص عـن الرحيـل.

لربمـا شـعر بحـزن دفـين، ولكـن لا بديـل عـن الذهـاب.. وهـا هـو يطـوي صحـراء مكـة طيًّـا إلى هـدف منشـود.. لـن ينـسى نظـرات النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- حـين أخـبره بعزمـه.. ليـس بعمـر الـذي تفوتـه هـذه النظـرات.. كان النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- يتحـدث بفخـر وهـو يتأمـل الواقـف أمامـه ويـرى فيـه جهـد السـنين وأمـل الغـد.

سـبع سـنوات منـذ أسـلم عمـر.. سـبع سـنوات مـن عـز الإسـلام ونـصرة الديـن.

«ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر».

وهـا هـو عمـر يـأبى إلا أن يسـطر صفحـة جديـدة مـن نـور.. صفحـات مضيئـة تضـاف إلى كتـب التاريـخ.. وحـدث جلـل سـيهز حتمًـا أم القـرى ومـا حولهـا.

- سنلتقي يا رسول الله.

قالهـا للنـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- قبـل أن يمـضي.. كان

الحـزن جليًـا ولكـن تصميمـه غلبـه هـذه المـرة.

- إن شاء الله سنلتقي يا عمر.

ربـت النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- عـلى كتفـه ورنـا بهـا إليـه، قبـل أن يتجـه بعدهـا بصرهمـا إلى هنـاك.. إلى يـثرب.

*****

نفس تشع رهبة وجلالاً، تلك هي نفس عمر.

وبسـيف لا يأبـه بالصعـب.. وبقـوس في أشـد الشـوق إلى سـهم.. وأمـام الجمـع.. طـاف بالبيـت سـبعًا دون أن يثنيـه أحـد.

ثـم أتى المقـام ليصـلي ركعتـين متمكّنًـا.. ولشـدة الذهـول لـم يتحـرك منهـم أحـد.. دارت عينـاه في جمـع قريـش.

- اللـه اللـه يـا قريـش! شـاهت الوجـوه.. لا يرغـم اللـه إلا هـذه المعاطس!

ثـم مـرر إصبعـه عـلى ذاك الشـج.. شـج قديـم عـلى جبهـة أبي جهـل تـرك أثـره حمـزة يومًـا.. إلا أن اللمسـة السـاحرة لإصبـع عمـر، اسـتدعت آلاف الذكريـات في ذهـن أبي جهـل، ثـم التقـت الأعـين.

عينـان التقتـا في صمـت.. وبصمـت هـو صـوت المـوت.. جـاء نـداء مـن قلـب الظلمـة قـد طلـع الفجـر.

التقت أعينهما لتصف صراعًا عنيفًا فريدًا.. صراع لا تراه الأعين مع شدته.. بضجيج لا يصل إلى الآذان.. غاصت عيناه أكثر فأكثر.. اخترق بهما حواجز لم يجتزها من قبل، وليمضِ إلى حدود لم يعهدها.. ودار حديث صامت لم تسجّله الوثائق، إذ أنه أبدًا لم يتجاوز الشفاه.

- إني راحل!

- فلترحل!

- يومًا سأعود.

- أبدًا.. لا تحلم!

- لن تكون وقتها.

- أوَتتنبأ؟

- بل أرى مستقبلك الأسود.

- أمري لي.. فلتمضِ.

- بل أمرك لعناد أحمق! فلتمض أنت!

- إلى أين؟!

- إلى حيث نهاية متكبر.. لو وكّل لك أمرك لمضيت معي.. لكني سأمضي وحدي.

تأمل عمرو بن هشام وجه عمر الذي ينطق بإصرار وعزيمة.

كان عمرو كارهًا حانقًا، وود لو ينطق بصبر فارغ:

- كفى يا عمر.

كان يعلم تمامًا مَن الواقف أمامه.. تلك القوة المتشحة بالإصرار.. ليست عن علم بالقتال.. أو شدة عند النزال، ولكنها عزة الإسلام.

العزة نفسها التي واجهه بها حمزة ذاك اليوم المشؤوم.. وأحدثت أثرًا أعمق من الذي يشهد به وجهه.. أثر لا يزول حتى الآن من نفسه.. وإلا فلِم لم يواجه عمر حين أخبره بإسلامه من قبل؟!

- اذهب يا عمر.. لن تجرفني بتيارك.. فلتذهب حيث تريد.. امض يا ابن الخطاب واتركني لشأني.. وسأبذل جهدي على ألا تعود.. سأبذل جهدي.. هذا وعد.. قصارى جهدي.. هذا أقصى ما عندي.

- يا معشر قريش.

انتزعه قول عمر من تأملاته، فعاد يراقب ذاك الواقف أمامه وهو يقول بصوت انساب من الأعماق

- يا معشر قريش إني مهاجر! يا معشر قريش، والله لو بلغت عدتنا ثلاثمائة رجل لقاتلناكم فيها حتى نخرجكم منها أو لتخرجونا منها.. يا معشر قريش.. إني مهاجر! إلا من أراد أن تثكله أمه.. أو ييتّم ولده.. أو ترمّل زوجه.. فليتبعني خلف هذا الوادي.

ثم أشار إلى هناك ومضى.. نحو الوادي.

في حين كانت الأعين ترمق عمرو بن هشام، كان هو ينظر

إلى المستقبل.. إلى الغد.. لكن كان هناك اللا شيء.

*****

- الله أكبر! لقد هاجر عمر.

كان ابن مسعود يردد ما رأى وهو يجري جزلاً في طرقات مكة.. حقًا لم يسمح له موقفه -وإن كان قرب الكعبة- بسماع الحوار، لكن الحدث كان أبلغ من أي بيان.. ولقد تكفل عليّ بن أبي طالب بإخباره بالتفاصيل، إذ كان على مقربة من الجمع.

علا بها صوته أكثر. ما إن رأى جمعًا من أصحابه.. هذا خباب، والثاني هو ثابت، بينما هذا الأخير هو عبادة.

التفت إليه ثابت يسأل باهتمام:

- ومن أخبرك بالأمر؟

أجابه ابن مسعود بغبطة:

- لقد هاجر علنًا.. على رؤوس الأشهاد.. أخبرني بذلك ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بلهفة واضحة تساءل عبادة:

- أخبرني بربك كيف حدث هذا.

نقل ابن مسعود بصره بين وجوه ثلاثتهم التي اتسمت بالبِشر قبل أن يقول قال ابن عم رسول الله صلى الله عليه

وسلم:

- إن عمر تقلّد سيفه وتنكب قوسه وانتقى بيده أسهمًا واختصر عترته، ومضى قبيل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف بالبيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام فصلى متمكنًا، ثم وقف على الخلق واحدة واحدة، فقال لهم: شاهت الوجوه.. لا يرغم الله إلا هذه المعاطس.. من أراد أن تثكله أمه ويبتم ولده، أو يرمل زوجته فليتبعني وراء هذا الوادي.

قاطع عبادة بلهفة:

- وهل تبعه منهم أحد؟

أجاب ابن مسعود:

- لم يجرؤ أحد منهم على ذلك.. بل تبعه بعض المستضعفين.. فأرشدهم ووضح لهم الطريق قبل أن ينصرف مسرعًا، فقد كان متعجلاً.

وكان أبو جهل يهتز فرقًا ويشتاط غضبًا، وهو يتبع عمر بعين ملؤها الحنق والبغض، ولم يجرؤ أحد منهم أن يحرك ساكنًا.

- لقد خذل الله عدوه وأيّد عمر بنصره. ولكن ماذا عنا؟ ألم يأذن لنا النبي -صلى الله عليه وسلم- بالهجرة؟!

قالها خباب، فالتفت إليه ابن مسعود مجيبًا:

- كلا.. لم يأتِ الأمر بعد.

ثم صمت، لقد كان يدرك بأن حدث اليوم نقطة تحول

فارقة.. بينما استعاد ذهنه صورة أبي جهل، فعلته السعادة.. فمن يدري، لربما جاء اليوم الذي يثأر فيه لأذنه التي انتزعها عدو الله بجذبة واحدة؟!

نعم.. من يدري؟!

*****

- لقد طال الطريق يا عمر.. متى نصل إذن؟!

هذا كان عياش بن أبي ربيعة، رفيق عمر في طريق الهجرة بعد حبس هشام بن العاص عنهما.

التفت إليه عمر وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة عريضة قبل أن يقول:

- هنيئًا الهجرة يا عياش.. لقد وصلنا بالفعل.. بلّغنا الله ثواب هجرتنا وجعل عملنا خالصًا لوجهه.

ما كاد عياش يبدأ بالرد حتى التفت إلى حيث نظر عمر، فقد كان هناك ركب في الأفق.

أشار عمر بإصبعه إلى جهة الركب وهو يقول:

- إني أرى عدو الله أبا جهل.. ما جاء إلا لشر.

- أدركنا أبو جهل إذن!

- ما زاد أبو جهل على أن تبعني ببصره في مكة.. والله لو كان جاء بشر لجعلت تلك الصحراء له قبرًا.

هنا كان رفيق أبي جهل يشير إلى ركب عمر قائلاً:

- ألا ترى يا أبا الحكم أن نرجع؟! ما أرى عمر بتاركه لنا.

- مالي ولعمر وما لعمر وما لي؟! إنما أتيت لعياش.. آخذه وأرجع.

حانت منه التفاتة إلى سيفه، فتابع:

- بالحيلة يا رجل.. بالحيلة.

كان يعلم تمامًا أن رفيقه يتوجس خيفة.. هو أيضًا يزايله خوف عميق من الصدام ولكن الوضع كان تأزم بالفعل، وما فعله عمر لا بديل معه عن العودة بعياش، ربما استرد شيئًا من كرامة قد أهدرت، ومن هيبة صارت لعبة بيد صبيان مكة.. وليعتبر به من اعتبر!

ارتسم على وجه أبي جهل خليط من خوف وضيق وحزم وهو يصرخ:

- أدرك أمك يا ربيعة.. أدرك أمك أيها البار.. لقد نذرت ألا تستظل من شمس السماء ولا يمس شعرها مشط حتى تراك.. أيكون هلاك أمك على يديك وما عهدناك إلا بارًا؟!

أدرك أنه أدى دوره ببراعة فائقة، فألقى بنظره إلى عمر، وكأنما يرجوه أن يصمت، إلا أن عمر نطق بقوة:

- والله ما أراهم إلا أرادوا فتنتك يا ربيعة.. ما يعجزون عنها إن عدت معهم.. إني لأرى مخايل الغدر على وجه هذا الكافر.

- كفاك يا عمر.. ما لك وللأمر. (قالها أبو جهل).

- بـل اخسـأ يـا عـدو اللـه.. مـا أردت إلا فتنتـه، أرى مخايـل الغـدر تكسـو وجهـك.

ثم التفت ليقول لرفيقه بهدوء:

- صـبرًا يـا أخـي.. مـا تلبـث أمـك أن تؤذيها الشـمس، فتسـتظل وتؤذيهـا رأسـها فتمتشـط.. مـا أراهـم إلا أرادوا فتنتك.

- بـل أراهـم صادقـين يـا عمـر! إني راجـع إلى أمـي.. مـا كنـت إلا بـارًا بهـا.

استشف عمر عزمًا في عيني ربيعة، فقال بيأس:

- مـا أرى إلا الغـدر في وجوههـم.. فـإن كان لا بـد.. فخـذ ناقـتي ناقـة نجيبـة.. فـإن لمسـت غـدرًا، فـأتِ بهـا ولا تلـوي عـلى أحـد.. ولـن يصلـوا إليـك بـإذن اللـه.

- مـا أرى الأمـر كذلـك يـا عمـر.. وإنمـا أبـرّ أمـي ثـم أعـود.. إن لي مـالاً تركتـه هنـاك أيضًـا!

- أفـلا تتبعـني؟ إن كان الأمـر لمالـك فلـك نصـف مـالي ولا ترجـع يـا ربيعـة.

- سأعود يا عمر.. لا تخش شيئًا ولتطمئن، فسآخذ الناقة.

تابـع عمـر ببـصره صاحبـه الـذي مـضى.. ولقـد كان عمـر ليشـعر بغصّـة في حلقـه، إلا أن شـعورًا زايلـه بأنهـم سـيلتقيان مـن جديـد، فتمتـم بدعـوات صادقـة:

- اللهم آتِ بعياش

قبـل أن يكمـل مـا بقـي مـن طريقـه نحـو المدينـة.. ولقـد كان قصـيرًا.. جـد قصـير.

## -٤-

تسللت الأشعة الخافتة لضوء الشمس لتغمر جنبات المسجد النبوي وقد بدت حزينة معلِنة يومًا جديدًا، ليس أبدًا شبيهًا بأي يوم، معلنة كذلك حسدًا تكنّه لقمر أمضى ليلته الفائتة في كبد السماء.

اجتماع صامت ذلك الذي كان هناك.. صمت مقدس ذلك الذي لف المكان.. وكأن الجميع يؤدون ترانيم صامتة في جو مهيب، أبى أحدهم أن يكسره إلا بتلاحق الأنفاس المتوترة، تنتظر حدثًا لا تدري كنهه.

نظرات مترددة متسائلة تبادلها الجميع، لكن أحدًا لم يبح بشيء.. بل ومن يدري! ربما أي منهم لم يكن يملك حقًا ما يقول!

ترددت خطوات ابنة السادسة عشرة في الغرفة ذهابًا وعودة، محاولة ولو بقدر ما أن تستوعب ما حدث، فلقد كان حقًا عسيرًا على التصديق.

تقاذفتها التساؤلات والظنون، ولكنها حتى الآن لا تصدق أن ما تحياه حقيقة واقعة لم تعشها في أسوأ كوابيسها وأكثرها فزعًا.

لربما ترددت.. توقفت.. تخاذلت.. ولكنها أبدًا لم تتراجع.. فلقد تقدمت عائشة -رضى الله عنها- في ذلك الصباح (صباح الإثنين الثاني عشر من ربيع الأول، للعام الحادي عشر من الهجرة النبوية) نحو تلك النافذة، التي طالما أطل منها النبي -صلى الله عليه وسلم- على المسجد متفقدًا أصحابه، وأرخت الستائر لتطل بدورها على الناس.. تلفتت لترى هذا الجمع هناك، ولكنها لم تلمح أباها بينهم.

ترددت لمرة أخيرة قبل أن تلقي قنبلتها التي كسرت الصمت المقدس:

- مات رسول الله.

وتأزم الموقف.. تأزم بحق.

تبلور الحدث وتجسد تمثالاً لأشنع الشياطين.. واتضحت معالم الموقف.. لوحة جميلة ملطخة بالسواد.

وتغوص في الظلام.

ظلام دامس.. وصمت مطبق واصل تزايده وبصورة ما اندفع له الجميع هربًا.. أو لنقل عجزًا.

صمتٌ توقف معه كل شيء.. توقف الزمن وتوقف البشر.

بل ووقف التاريخ محايدًا، بل -والأدهى- مشاهدًا.

صمت ثقيل خانق أقره الجميع -وبلا أي اتفاق سابق- قبله الكل.. لكنه طال.. طال وطال واتضح أنه لا بُدَّ أن يكسره شيء.

وهل يكسر الصمت مثل الكلام.. أي كلام.

وهنا اندفع إلى بؤرة الحدث عمر.

مجبرًا الزمان على أن يتحدث، ومجبرًا التاريخ على أن يفوق من كبوته ليدون.

وأجبر نفسه هو -دون سواها- على أن يجادل ولو بطريقة ما.

أن يتحدى الموقف.. يكافئه.. يلغيه.. وبمعجزة ما يمحو هذه الساعة من ذاكرته.. تكلم عمر.. تكلم وهو لا يدرك حتى كيف سيجيب السؤال الملح: «لِم تكلم؟».

ولكن ما يعلمه جيدًا أنه تكلم!

بيأس وأمل صدرت الكلمات.. قوية.. صارمة.. لسبب ما تقبلتها النفوس.. ربما لأنها هزمت الصمت.. ربما لأنها وعلى الرغم من أن العقول أو القلوب سواء لم تألفها، ولكنها أقرت بأنها ارتاحت إليها.

وجدت فيها ما يخفف الوطأة ويعالج الكارثة حتى ولو بكارثة أعمق.

وجدت في كلمات عمر ما لم تنتظره.. ما لم تتوقعه.. لربما لمثل هذا سبب قبلته.. ربما لسبب آخر.

انطلقت الكلمات.. اتخذت الآذان منها موقفًا عدائيًا.. رفضت الجدران بإصرار عجيب أن ترددها.. ولكنها انطلقت.

- إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله -صلى الله

عليه وسلم- توفي. وإن رسول الله ما مات.. لكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فغاب أربعين ليلة، ثم رجع إلى قومه بعد أن قيل بأنه مات.

وبدا لأول مرة أن الموقف قد خرج على المألوف.

وعلى الرغم من تلاشي المألوف ذاته لكن الموقف بدا غريبًا مموهًا.. ينتظر الحسم.. ينتظر الحق.. حقًا يعلم الكل بأنه هناك يقبع في الأفق.

لربما يختفي عن الأعين ولكنه سيظهر حتمًا.. ومن يدري! ربما لا يظهر أبدًا.

في هذه اللحظة بالتحديد بدا أن الكون كله توقف ليشاهد تلك البقعة التي تركزت عليها أضواء الدنيا كلها.. لتسجل لحظة الحسم.. لحظة انعدام الاحتمالات.

ولتتجلى للعيان الحقيقة.. حقيقة واحدة.. واحدة فحسب.

وأنبتت الأرض من كان هناك.. بالضبط في الموعد والمكان.

وإن كانت هناك أحداث تصنع رجالاً.. فإن هناك من الرجال من يصنع الأحداث.

أقبل الصديق أبو بكر، حتى نزل عن فرسه ودخل المسجد، ثم اتجه نحو الغرفة التي صارت مثار التساؤلات في هذا الصباح.. وهناك رأى ما لم يكن يتمنى أبدًا أن يراه.. لربما غالبته دموعه فغلبته.. لكن الموقف والحدث والمكان والزمان، أيًا منهم لم يحتوِه.. ولقد كان لا بُدَّ أن يتغلب على كل هذا، حيث اتجه بعزم هو نفسه يتعجب منه.. وبإصرار

اتجه إلى مركز الحدث، إلى حيث وقف عمر يردد كلماته التي ذابت في الصمت، فكوّن مزيجًا ساحرًا فرض نفسه وكينونته على الجميع.

وبدا أن قول عمر هو الحقيقة الوحيدة الراسخة هذا الصباح، وبأن من أراد المخالفة فليتكلم الآن أو ليصمت إلى الأبد.

مر الصدّيق بعمر، فقال بحزم:

- اجلس يا عمر.

ولكن هيهات.

خيّل لعمر نفسه أنه لم يسمعها.. بل من أدراه بأنه رأى أبا بكر من الأساس.. لقد رأى رجلاً.. بل قل طيفًا.. ربما رآه قبلاً وربما لا.. ربما عرفه يومًا.. أما اليوم فهو لم يعد يعرف أحدًا.

بل لم يعد يعرف قولاً ولا فعلاً.

تأمل الناس يتحولون عنه إلى هناك، إلى حيث يتكلم هذا الرجل.

- ماذا يقول؟

وهل عاد هناك من قولٍ يقال، ولكن ويا للعجب -فبلا إرادة- سكت عمر! صمت ولكن ما يزال يراقب شفتي المتكلم وهو لا يكاد يسمعه.. أو لا يريد أن يسمعه.

ولكن جملته الأخيرة اخترقته.. زلزلت كيانه زلزالاً.

لقد قالها أبو بكر ولم يعد هناك جدل:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شيئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِين».

وتهاوت قدما الفاروق وهو يدرك لأول مرة هول الفاجعة.. واضحة هذه المرة بلا أي شائبة أو شك.. وبدأت أنفاسه تنساب منه إلى المجهول.

وبدأ يتأمل الحركة اللا نهائية من حوله.. وفي نفسه سؤال يتصاعد ويتصاعد: أهي في كتاب الله يا أبا بكر؟! أهي في كتاب الله يا أبا بكر؟!

شعر بأنه يسقط في هوة سحيقة.. تسحقه الكلمات فلا يكاد يستقر حتى يواصل السقوط من جديد.

وتداعت إلى نفسه ذكرى عطرة.. كان مع قسوتها أكثر قوة وبأسًا.

يزيده وجه النبي -صلى الله عليه وسلم- إصرارًا وعزمًا.

تذكر أبا سفيان إذ وقف في كامل العدة والأهبة، مطاولاً ومفاخرًا على جبل أحد.

إذ علا صوته مدويًا، وهو يتساءل بسخرية: أفي القوم محمد؟

واندفع عمر ليجيب، إلا أن أمر النبي كان حاسمًا:

- لا تجيبوه!

وازداد أبو سفيان نشوة وطربًا:

- أفيكم ابن أبي قحافة؟

وأجابه صمت مطبق أثر أمر النبي!

وازداد أبـو سـفيان ثقـة مـع سـؤاله الثالـث، الـذي فجّـر بركانًـا في نفـس عمـر ولكنـه رضـخ للطاعـة:

- أفي القوم ابن الخطاب؟!

وللمـرة الثالثـة، أجـاب الصمـت.. صمـت مطبـق خيـم عـلى الجبـل.

واكتسى أبو سفيان ببهاء شيطاني عجيب، وهو يردد بزهو:

- يا معشر قريش.. قُتلوا؛ لو كانوا أحياء لأجابوا.

وتهيـأ عمـر للطاعـة مـن جديـد، إلا أن النـبي هـو مـن صمـت هـذه المـرة، والتقـت عينـا النـبي بعيـني عمـر، فتفجـرت ينابيـع الإصرار، فـرد بصـوت اهـتز لـه أبـو سـفيان فرقًـا:

- كذبت يا عدو الله.. بل أبقى الله ما يسوؤك.

ولكن أبا سفيان تمالك نفسه، فعلا الصخرة صائحًا:

- أعلُ هُبل.

وانسـابت الكلمـات رقيقـة هادئـة مـن فـم النـبي، رددهـا بعده عمـر ورددهـا المسـلمون وتفاعـل معهـا الجبـل، فكانـت أنشـودة عذبـة.. وتـردد في الأفـق الصـوت صادحًـا، معلنًـا مقياسًـا جديـدًا مـن مقاييـس الغلبـة والنـصر، ومـن قلـوب لا تعـرف إلا الانتصار،

دوى الصوت الذي هز الأركان:

- الله أعلى وأجل.

وتراجع أبو سفيان.. قوة ما لم يدر كنهها أجبرته على التراجع.. بل وهبط إلى صخرة أدنى متابعًا:

- لنا العُزّى ولا عُزى لكم.

وعاد اللحن يصدح من جديد والجبل يردد قولاً حاسمًا:

- الله مولانا ولا مولى لكم.

وتراجع أبو سفيان ثانية، ولكنه تمسك بأمل ما زال يقبع في نفسه، وهو يقول بصوت حاول أن يجعله قويًا متماسكًا، فخرج واهنًا متحشرجًا:

- يوم بيوم بدر.. الحرب سجال.

وبعزم يتعلم منه العزم كيف يكون، تكلم عمر فأسمع:

- لا سواء، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار!

وهنا أدرك أبو سفيان بأن لا مجال لجدل جديد، فرضخ وهو يقول بهدوء:

- أصدقني القول يا عمر.. أقتلنا محمدًا؟

ارتسمت ابتسامة ساخرة على محيا الفاروق، وهو يقول:

- اللهم لا.. وإنه ليسمع كلامك الآن ولترين منا ما يسوؤك.

وانصرف أبو سفيان.. انصرف مكتفيًا بما نال.

بل لم يزد أن ردد بهدوء ووهن:

- والله يـا عمـر لأنـت أصـدق عنـدي مـن ابـن قمئـة وأبـرّ.. ولقـد قـال إني قتلـت محمـدًا.

وتردد الوحى الذي نزل من السماء بقوة:

«وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيه فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شيئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ».

- أهي في كتاب الله يا أبا بكر؟!

عاد عمر يسأل نفسه من جديد وهو يلمح ظلالاً تتحرك من حوله.

ثم عاد إلى ذهنه وجه أبي سفيان، الذي جاء يوم نقض الصلح.. يا له من يوم! يوم أن تمنى عمر ولو جاهدهم بالذر.

يوم العودة إلى مكة.. آه ثم آه يا مكة! أرض الصبا والشباب.. لقد سعد عمر أيما سعادة يوم أن رأى الكعبة.

آه يا خير بلاد الله! ها قد جئت من جديد.. ها قد صدق عمر.. ها قد جاهدوهم وإن لم يخرجوهم منها، فلقد دخل الناس في دين الله أفواجًا.

لقد شعر عمر فيما شعر بسعادة عارمة اجتاحت النبي -صلى الله عليه وسلم- يومها.. ها هو يعود إليها بعد أن كادوا يقتلونه فيها.. يقتلونه! ولكنهم أبدًا لم يقتلوه!

تساءل من جديد:

- أهي في كتاب الله يا أبا بكر؟! هل مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حقا؟ هل مات؟! «أو لم يخطبهم يوم حجته، فقال أيها الناس اسمعوا قولي فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبدًا» هل مات رسول الله -صلى الله عليه وسلم- حقا؟. هل مات؟!

كان عمر يعلم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- مرض مرضًا شديدًا.. المدينة كلها كانت تعلم ذلك.. ولكن...

لِم قال:

- لا تتخذوا قبري وثنًا؟

ولِم قال:

- أوصيكم بالأنصار خيرًا؟ أيها الناس، اتقوا الله في النساء، اتقوا الله في النساء، أوصيكم بالنساء خيرًا.

بل لِم قال:

- إن عبدًا خيّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عنده، فاختار ما عنده.

نعم.. قالها النبي صلى الله عليه وسلم. بكى يومئذ أبو بكر، ولقد قال نفديك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله.

أو قد رأى يؤمئذ أبو بكر ما لم يره أحدنا.

- أهي في كتاب الله يا أبا بكر؟!

وهنـا انسـابت الدمـوع مـن عيـني عمـر.. وفجـأة تـراءى لـه الموقـف كامـلاً.. وتـراءت الحقيقـة واضحـة.. مجـردة خالصـة هـذه المـرة.. ولكنهـا قاسـية.. جـد قاسـية.

وتناهى إلى مسامعه صوت فاطمة الباكي:

- يـا أبتاه..أجـاب ربًـا دعـاه.. يـا أبتـاه.. جنـة الفـردوس مـأواه.. يـا أبتـاه.. إلى جبريـل ننعـاه.

لقد اتضح الموقف إذن ولم يعد يحتمل جدلاً.

وداعًـا يـا رسـول الله.. مـع الذيـن أنعـم الله عليهـم مـن النبيـين والصديقـين والشـهداء وحسُـن أولئـك رفيقًـا.. إلى الرفيـق الأعـلى يـا رسـول الله.

ولكن.. لنقل إلى لقاء.

وانتقـل بعينيـه المغرورقتـين بالدمـوع إلى حيـث الحجـرة الـتي طالمـا رأى النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- يطـل منهـا إليهـم.

ولكنه لن يطل عليهم منها بعد اليوم.. أبدًا.

-٥-

- اكتب يا ذا النورين.

قالها أبو بكر بوهن.

كان الـكل يـدرك أن الخليفـة في مـرض المـوت.. هـو كذلـك يعلـم بأنـه المـرض الأخـير.

- آه أيها الزائر الغالي.. غدًا نلقى الأحبة.

وعاودتـه حينهـا ذكـرى ذلـك اليـوم العصيـب.. ومـن ذا ينـسى يـوم الثقيفـة.. يـوم فتنـة وأدهـا عمـر.. وحينهـا وقـف الصدّيـق موقفـه كذلـك.

- اختـاروا عمـر.. أجـرى اللـه الحـق عـلى لسـان عمـر وقلبـه.. اختـاروا أبـا عبيـدة.. أمـين أمـة النـبي محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم.

ولقـد أجـرى اللـه الحـق يومئـذ عـلى لسـان عمـر.. فلقـد تحـرك ممسـكًا بيـد الصدّيـق.. صادحًـا في الأرجـاء أن بايعـوا مـن قدمـه رسـول اللـه.. أيكـم طابـت نفسـه أن يتقـدم اليـوم أبـو بكـر؟!

ابسط يدك يا صدّيق نبايعك.

لـك اللـه يـا عمـر، فلقـد رتـق ثلمـة مـا كان لهـا أن ترتـق..

ووأد فتنة ما كان لها أن توأد.. تملكت تلك الذكرى الصدّيق بإصرار.. وصرخت أعماقه أن يوم الثقيفة لن يعود.. وأي عودة تلك إن عاد، فالمسلمون اليوم بين أسدين جريحين (فارس والروم) ينتظران غفوة للانقضاض.

لقد قالها الصديق لا تحتمل جدلاً يوم سئل:

- والله ما ندري أأنت الخليفة أم عمر؟

فقال: - بل عمر.. إن شاء الله!

وها هو اليوم قد شاء الله.

- اكتب يا عثمان.. بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجًا عنها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حين يؤمن الكافر، ويوقن الفاجر أني استخلفت عليكم بعدي.

وبدأ الألم هجومه بلا هوادة ولا رحمة، إلا أن الخليفة قالها بإصرار ليسجل عهدًا جديدًا في بلاد العرب.. ولتشرق شمس جديدة على أرض الإسلام.

- اكتب يا زوج ابنتيّ رسول الله.. إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا. أوَكتبت يا عثمان؟

- نعم يا خليفة رسول الله.

- فاختتِم الكتاب، واشهد يا ذا النورين بأني استشرت المسلمين.. اشهد بأني استشرت صحابة النبي وإن أبى بعضهم (بأسى بادٍ نطقها قبل أن يسأل بلهفة)، أفشاهد أنت يا

عثمـان؟

- أشـهد يـا خليفـة رسـول الله.. أشـهد.. وإن كنـت عنيـت طلحـة والزبـير، فلقـد فـاءا إلى رأيـك فيـه.

- والله يـا عثمـان إني لأعلـم أن بـه غِلظـة ولكـن ذاك لمـا يـراني رقيقًـا.. إني لأعلـم عمـر.. والله لـو أفـضى الأمـر إليـه لـترك كثـيرًا ممـا هـو عليـه (بنظـرة واثقـة قـال الصديـق) يـا عثمـان.. إني أريـد رجـلاً إن قـال نعـم، قالهـا بمـلء فيـه، وإن قـال لا قالهـا بمـلء فيـه.

قالها الصديق وقد ارتسمت في ذهنه صورة لرجل واحد.

رجل اسمه عمر.. عمر بن الخطاب.

*****

هائـج كبحـر.. ثائـر كـبركان.. أمسـك الفـاروق بتلابيـب سـعيد بـن زيـد، منتزعًـا إيـاه مـن جـوار عـلي بـن أبي طالـب، وهـو يـصرخ:

- والله لقد زكيتني عند أبي بكر قبل موته يا سعيد!

ارتجـف سـعيد وهـو يغالـب تلاحـق أنفاسـه، وقـد شـعر بـأن روحـه تتسـلل مـن بـين جوانبـه، وهـو يجيـب بصـوت متحـشرج وكلمـات متقطعـة:

- والله ما زكيتك يا عمر! والله ما رشحتك!

ربت عليٌّ على كتف عمر، وهو يغالب رغبة ملحة في الضحك، قائلاً:

- دع ابن عمك يا ابن الخطاب.. أوَتقتل صهرك لأنه زكّاك! (نظر نظرة ماكرة وهو يطالع ملامح سعيد التي ارتسم عليها الرجاء)، ما زكاك وما رشحك، ولقد شهدت المجلس ولقد قال فيه سعيد:

- ما أعلم منا أحدًا إلا كان أسبق إلى الإسلام من عمر.

ترك عمر ابن عمه ينساب من قبضته وهو يراقبه بحذر، قبل أن يقول بحيرة:

- أحقًا قلت هذا يا سعيد؟!

كاد سعيد أن يصرخ بأن نعم، إلا أنه عجز عن الكلام فأومأ برأسه علامة الإيجاب.

- ليت أم عمر لم تلد عمر.. والله لقد حملني أبو بكر التبعة من رقبته إلى رقبة عمر.. وما لعمر؟ أوَليس في المسلمين سوى عمر.. ويلك يا ابن الخطاب من حساب الله.

ارتسمت نظرات جادة هذه المرة على محيا عليٌّ، وهو يقول:

- هوّن عليك يا عمر.. الإمام العادل من السبعة الذين يظلهم الله في ظله.

- إمام عادل؟ ومَن لي بذلك يا أبا الحسن؟ من لي بذلك؟

قالها ثم انصرف، في حين تبِعَه سعيد بنظرات قلقة مرتابة..

قبل أن يفاجأ بعليّ يلكزه في كتفه، وهو يقول ساخرًا:

- أرأيت يا سعيد؟! لم أخبره بما قلت.

فنظر سعيد بوجوم:

- ويحك يا أبا الحسن! بم أردت أن تخبره؟

- أو لم تقل فيما قلت: والله لو علم عمر أنني رشحته للخلافة فيمن رشحه ليحاسبني حسابًا عسيرًا؟! أوَلم يقل لك الصديق -رحمه الله- هذه إذن شهادة تكفينا منك؟!

اكتست ملامح سعيد برعب حقيقي، في حين ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه عليّ وهو يتابع عمر، الذي قد مضى في سيره.. مضى بعيدًا.. جد بعيد.

*****

بدأت جيوش الظلام تواصل زحفها على سماء دمشق، معلنة انتصارها أخيرًا على جيوش النور ومبشّرة بفجر جديد سيلوح في الأفق.

وبدأت ظلمة حالكة تتسلل إلى سماء المدينة، في حين اكتست ملامح خالد بحزن دفين، قبل أن ترنو إليه أم تميم بحنو:

- لكم ترهق نفسك يا أبا سليمان! ما للدنيا نعمل! وأبو عبيدة لن يقضي أمرًا من دونك.

التفت إليها بوجوم واضح وهو يتمتم بعبارات أبي عبيدة:

- يا خالد ما سلطان الدنيا نريد وما للدنيا نعمل!

ثـم توجّـه بالحديـث إلى أم تميـم بصـوت خفيـض كأنمـا يحـادث نفسـه:

- أتاه كتـاب عمـر وتركـني حـتى فتحـت دمشـق.. بـل وطاردنـا جيوشـهم، حـتى بـلاد الـروم، فمـا أخـبرني.. صـلى خلفـي والسـلطان سـلطانه ولـم يخـبرني.

- هوّن عليك يا أبا سليمان.. هذا هو قدر الله.

- وهذا هو أمر عمر.. ما كان ابن الخطاب ليتركني.

ثم تأمل وجه زوجته متابعًا:

- أتعلمين يا أم تميم بأنك أحد أسباب سخط عمر؟!

- وما شأني أنا بما بينك وبين عمر؟

- يـوم الـردة.. مـا إن دخلـت مسـجد الرسـول -صـلى اللـه عليـه وسـلم- حـتى اسـتقبلني عمـر.. انـتزع أسـهمي فكسرهـا، وهـو يقـول:

- واللـه إن في سـيفك رهقًـا يـا ابـن بني مخـزوم.. قتلت مسـلمًا، ثـم نـزوت على امرأتـه.. واللـه لأرجمنـك بأحجار.

- أو قال عمر ذلك؟!

- والله ما قتلت مالك إلا كافرًا.. ولا تزوجتك إلا بعد العدة.

ثـم عـاد ينظـر إلى أم تميـم وقـد اكتـسى وجهـه بابتسـامة

مرحـة:

- لأجلك كنت سأرجم بأحجار يا أم تميم.

ثم عادت صورة عمر تحتل ذهنه، فقال بضيق:

- واللـه مـا أتـاني بعدهـا مـن أبي بكـر مـن أمـر إلا كان لهـذا الأعيـسر فيـه يـد.. ولقـد أرسـل إليّ الصديـق ألا أعطـي شـيئًا إلا بأمـره.. فأرسـلت بـأن دعـني، وإلا فاعزلـني.

قالت أم تميم مهوّنة:

- ولكن أبا بكر -رحمه الله- لم يعزلك.

تابع، متجاهلاً كلماتها الأخيرة:

- ولقـد أرسـل إليّ يقـول: يقطـر الـدم يـا ابـن أم خالـد.. إنـك لفـارغ.. تنكـح النسـاء وبفنـاء بيتـك دم ألـف ومائـتي رجـل مسـلم لـم يجـف؟! ويـلي إذن مـن عمـر!

- إلى هذا الحد تبغضه يا خالد؟!

نظر إليها في حيرة قبل أن يجيب:

- إني لأحبـه وأبغضـه.. كلاهمـا معًـا. (ثـم تراجـع) كلا واللـه مـا أبغضـه.. لقـد فـرح لإسـلامي مثلمـا فـرح رسـول اللـه. (بحـيرة) واللـه إن عمـر لعظيـم. (التفـت إليهـا وهـو يقـول مازحًـا) ثـم لقـد ولدتـه مخزوميـة.. أوَلا يكفـي هـذا ليكـون عظيمًـا؟!

- لكم تحب بني مخزوم يا خالد!

بلهفة قال:

- ريحانة العرب (ثم كمن ندم فاستدرك) الحمد لله الذي أعزنا بالإسلام.

قالها ثم أرسل بصره في الأفق.. تناسى الزمان والمكان وقد تنازعته آلاف الأسئلة، في حين ارتسمت في ذهنه صورة لضفاف نهر احتل عقله تمامًا.. نهر اليرموك.. بينما كانت أم تميم تتمتم بأبيات طالما أعجبت عمر، وإن لم تكن تدري بذلك!

*****

هدوء مقيت خيّم بظلاله على مجلس أمراء المعارك الدائرة في الشام.. وبينما كان معاذ بن جبل وأبو عبيدة يتبادلان نظرات قلقة، كان خالد يغوص في أحلام اليقظة الخاصة به ويحلق بعيدًا عن المجلس الذي جمع ثلاثتهم.. وبنبرة مرتابة تحدث معاذ، موجهًا حديثه إلى أبي عبيدة، وهو يقول:

- الأمر جد خطير يا أبا عبيدة.. سيهاجم يزدجر مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

بادله أبو عبيدة نظرة حائرة:

- أوَصدقًا هذا القول يا معاذ؟! أوَلم يرجع أمير المؤمنين عن المضي إلى العراق لقيادة الجيش هناك؟

- ما رجع إلا بعد أن علم أن هرقل يريد أن يشنّ هجومًا

مماثلاً، فرأى أن الأمثل هو البقاء بمدينة الرسول بدلاً من المجازفة بالرحيل عن المدينة وتركها عرضة للهجوم.

- لا تخش شيئًا يا معاذ بالعراق المثني.. لا ينام ولا يترك أحدًا ينام، ثم التفت إلى خالد الذي بدا منشغلاً عنهما، مثله مثل ابن الوليد..

- ما بك يا أبا سليمان؟ ألا تتشاور معنا؟

تنبه خالد للسؤال، فنظر إلى أبي عبيدة مردداً:

- ألا تزالون تتحدثون عن يزدجر.. أوَتظنون حقًا يا أمراء الجيش أن هذا الغلام قادر على أن يخوض صحراء العرب بعد كل ما لاقوه في العراق من هزائم؟!

قال معاذ بفرح:

- لقد ولّى أمير المؤمنين سعد بن أبي وقاص على جيش العراق!

ابتسم خالد وهو يقول:

- الليث عاديًا.. نِعْم الرأي رأي عمر.. ليلتهمنهم سعد التهامًا.

تأمله أبو عبيدة متسائلاً بجد واضح:

- أتعتقد بأن هرقل قد يهاجم المدينة حقًا يا خالد؟

ازدادت ابتسامة خالد اتساعًا، وهو يقول:

- هرقل هذا دعه لي.. لأشرّدن لك جيشه الذي جمعه في

الأرجـاء.

تساءل أبو عبيدة بقلق:

- أوَمـا زلـت مـصرًّا عـلى خطتـك يـا أبـا سـليمان؟!

التقط معاذ كلمات أبي عبيدة ليسأل بحيرة:

- أي خطة تلك يا خالد؟

سارع أبو عبيدة بالإجابة:

- يريد أن ينسحب من دمشق!

ذهـل معـاذ وهـو ينظـر إلى خالـد غـير مصـدّق، فـأسرع خالـد يقـول:

- لم أقل إننا سننسحب من دمشق بالتحديد!

بـدا ارتيـاح مـا يرتسـم عـلى محيـا معـاذ، حـتى تابـع خالـد بغتـة:

- سننسـحب مـن دمشـق وحمـص وشـيزر وحمـاة وبعلبـك، تأمـل نظـرات الذهـول الخاويـة الـتي ارتسـمت عـلى محيـا معـاذ، متابعًـا:

- سننسحب من كل مدينة في ذلك المكان.

كان يتحـدث مشـيرًا بيـده، مكوّنًـا نصـف دائـرة، متراجعًـا بهـا إلى الخلـف وهـو يتابـع، مكمـلاً لمعـاذ:

- سنجتمع بالبلقاء على تخوم أرض العرب.

تنبه معاذ فجأة من ذهوله وهو يلقي بسؤال:

- أوَتأمل حقًا أن يوافقك أمير المؤمنين على ذلك؟!

سارع أبو عبيدة بالحديث لئلا يترك المجال لخالد لإجابة حادة من أي نوع:

- أمير المؤمنين أمر بالإسراع في المعركة حتى نباعد بين هجوم الروم وهجوم فارس.

أومأ خالد برأسه متفهمًا:

- أدرك تمامًا ما يراه عمر.. لقد أقمت نفسي موقفه، فما وجدت إلا أنه محق لأبعد مدى.. لا تخشَ شيئًا يا أبا عبيدة كل ما أريده أن يظل الأمر سرًا.. وأن تأمر الجيش بطاعتي على كل أمر ولو خالف رأيك.. وعليّ أنا التبعة كاملة.

ثم خفض من صوته وهو يشرد بذهنه بعيدًا، وبدا وكأنما يحادث نفسه:

- إني لأرى جثث الروم هناك قرب نهر اليرموك.

ثم تأمل وجه أبي عبيدة وهو يقول بنبرة حالمة:

- دع المعركة لي، ولأقبرنَّ الروم هناك.

كان معاذ يكاد يصرخ وهو يقول:

- مهلاً مهلاً.. أمير المؤمنين عمر لن يوافق على هذا أبدًا.

نظر إليه خالد، وهو يقول بهدوء:

- والله ليرين عمر من المدينة ما لم ترياه هنا.. والله لأضربن الروم ضربة لن تقوم لهم بعدها قائمة.. قالها،

ثـم عـاد لـشروده مـن جديـد.

*****

تسـللت أشـعة الشـمس لتـضيء جوانـب المسـجد النبـوى الشريـف، في حـين امتـلأ وجـه الخليفـة بِشْرًا وسـعادة وهـو يقلب يـده في كيـس الـتراب أمامـه، وسرعـان مـا اقـترب مـن حولـه مـن الصحابـة يحـذون حـذوه ويتبادلـون الـتراب فيمـا بينهـم، قبـل أن ينظـر عمـر إلى عاصـم بـن عمـرو الليـثي، الـذي بـدا عليـه أثـر السـفر، ليقـول بـودٍّ:

- أخبرنا يا عاصم ماذا فعل يزدجر معكم.

اقـترب الجالسـون مـن المجلـس أكـثر فأكـثر، ليسـمعوا قـول عاصـم، حيـث قـال بـسرور واضـح:

- كنـا وفـدًا مـن سـتة: النعمـان بـن مقـرن، والمغـيرة بـن شـعبة، والأشـعث بـن قيـس، وفـرات بـن حيـان، وعمـر بـن معـد يكـرب، وأنـا.. وبعـد أن مكثنـا ثلاثـة نفـاوض يزدجـر حـتى أيـس مـن أن نعطيـه سـوى مـا أعطينـاه مـن الخيـار، حـتى أصررنـا عـلى الرحيـل.

- أوَلم يطلب منكم البقاء؟

- أراد أن يستبقينا حتى يحضر رستم!

- ذلك القائد الفارسي الجديد؟!

- نعـم.. فـارس فرسـان إيـران.. وقائـد جيوشـهم.. ولكنـا خيّرنـا يزدجـر بـين الإسـلام أو الجزيـة أو الحـرب.

- واختار الحرب. (قالها عمر بأسى).

- نعم، ولقد قال أبلغوا سعدًا بأني مرسل برستم ليدفنكم وإياه في خندق القادسية، وبعدها أدخل علينا عبدًا أسود يحمل وقرًا فيه تراب وسألنا عن سيد القوم.

- أوَتقدمت أنت يا عاصم؟

- يشهد الله أنه لولا لمحت في عينيه الشر ما تقدمت على من معي.

بدت الدهشة على ملامح عمر وهو يسأل:

- وأمرك أن تحمل التراب؟!

أجاب عاصم بسعادة:

- ليس هذا فحسب، بل أمرني ألا ألقيه إلا بعد أن أخرج من باب المدائن.

تساءل عمر بلهفة:

- وماذا فعلت بعدها؟

تابع عاصم فرحًا:

- انطلقت لا ألوي على أحد خوفًا من أن يفطن للأمر.. حتى بلغت سيدي سعد، فأمرني أن أحمله لك!

- لك الله يا سعد.. لقد تم التسليم يدًا بيد إذن (وكان عمر انتبه فجأة، فسأل): أوَلم يُشفَ سعد بعد من مرضه؟

أومأ عاصم بأن لا.

بـدا الإطـراق عـلى وجـه عمـر، إلا أن عـليّ بـن أبي طالـب، صـاح مستبشرا:

- إذن فقـد سـلمنا هـذا المليـك مقاليـد فـارس.. يـدًا بيـد.. اللـه أكبر.

ضج المسجد بالتكبير، في حين تمتم عمر:

- ويـل للملـوك مـن المسـتضعفين.. ويـل للظالمـين من سـطوة الحق.

بسعادة، قال ابن عباس:

- لم تغن عن هرمز يومًا خزائنه

والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

التقطها عمر فتابع:

- أين الملوك التي كانت نوافلها

من كل أوب إليها راكب يفد؟

فأكمل علي بن أبي طالب فرحًا:

- حوض هنالك مورود بلا كذب

لا بُدَّ من ورده يومًا كما وردوا

بدا التأثر على وجه عمر، فاتجه للحاضرين بقوله:

- يـا خلفـاء اللـه في أرض اللـه، لا يمنعـنّ أحدكـم مانـع مـن أن يقـول اتـقِ اللـه يـا عمـر.. فـلا خـير فيكـم إن لـم تقولهـا ولا خـير فينـا إن لـم نقبلهـا.. إلا أن رأيتـم فيّ اعوجاجًـا، فقومـوه.

فقام أحد الجالسين، مقاطعًا بحزم وصرامة:

- والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بسيوفنا.

استبشر عمر وهو يقول:

- الحمد لله الذي جعل في أمة محمد من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه.

بدأ الجمع في الانسحاب رويدًا رويدًا، حتى لم يبق أمام عمر سوى علي وابن عباس وعاصم، ذلك الأخير الذي قال مستئذنًا في الانصراف:

- أوَلا تأمرني يا أمير المؤمنين بأمر آخر؟

- أوصل رسالتي لسعد وأبلغه سلامًا من المسلمين جميعًا.

- أوَلم يأت أمر حول جند الشام؟

أشار عمر برأسه نافيًا، ثم قال:

- اللهم انصر جيش المسلمين ولا تخذلنا في أبي عبيدة. اللهم وفق خطة خالد.

قالها وهو يتابع عاصم حتى غاب، ثم التفت إلى ابن عباس، وهو يقول:

- أوَلا تنشدنا من شعر أشعر الشعراء، من يقول «من ومن ومن»؟

- أوَتقصد زهير مَن لا يماطل بين القوافي، ولا يتبع حواشي الكلام؟

تأمله عمر وقد سرّه أن قال رأيه فيه قبل أن يجيب:

- نعم يا فتى الكهول.. ذو لسان سؤول وقلب عقول.

ردد عليّ بخشوع:

- صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

رددوها جميعًا قبل أن يبدأ ابن عباس في قول شعر زهير:

- فَإِنَّ الحَقَّ مَقطَعُهُ ثَلاثٌ

يَمينٌ أَو نِفارٌ أَو جِلاء

فَذَلِكُمُ مَقاطِعُ كُلِّ حَقٍّ

ثَلاثٌ كُلُّهُنَّ لَكُم شِفاء

ابتسم عمر وهو يقول:

- هلا زدتنا يا ابن عباس، فقد اشتقت للشعر

ابتدأ ابن عباس:

- قَوْمٌ أَبُوهُمْ سِنَانٌ حِينَ تَنْسِبُهُمْ

طَابُوا وَطَابَ مِنَ الأَوْلادِ مَا وَلَدُوا

فتابع علي:

- لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ الشَّمْسِ مِنْ كَرَمٍ

قَوْمٌ بِأَوَّلِهِمْ أَوْ مَجْدِهِمْ قَعَدُوا

وأكمل عمر:

- إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا جِنٌّ إِذَا فَزِعُوا

مُرَزَّءُونَ بَهَالِيلٌ إِذَا حَشَدُوا

وتابع ابن عباس:

- مُحَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ

لا يَنْزَعُ اللَّهُ مِنْهُمْ مَالَهُ حُسِدُوا

بدا تأثر عميق على محيا عمر، وهو يقول:

- ما كان أحب إليّ لو كان هذا القول في أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

بدت السعادة على وجه علي وابن عباس اللذين تبادلا نظرة فرحة، قبل أن يقول عليّ مداعبًا:

- ماذا تقول لأفراخ بذي مَرَخٍ

زغبِ الحواصِل لا ماء ولا شجرُ

التقطها ابن عباس فتابع:

- ألقيت كاسبَهم في قعر مظلمةٍ

فاغفرْ عليك سلامُ الله يا عمرُ

ثم تبادل الاثنان القول:

- أنت الإمامُ الذي من بعد صاحبِهِ

ألقى إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ

لم يؤثروك بها إذ قدَّموك لها

لكن لأنفسِهم كانت بك الأُثْرُ
فامنُنْ على صِبيةٍ مسكنُهم

بين الأباطح تَغْشاهم بها القِرَرُ
أهلي فـدَاؤُكَ كم بيني وبينهُم

من عَرْض داوِيةً تَعْمَى بها الخُبُرُ

بلغ الضحك من عمر مبلغه، وهو يقول:

- ذاك الحطيئـة أراح الله المسـلمين مـن هجائـه، لقـد جـاء يقـول لي حـين قلـت لأقطعـن لسـانه: والله يـا أمـير المؤمنـين لقـد هجـوت أبي وأمـي وهجـوت امـرأتي، حـتى هجـوت نفـسي.

ابتسم علي وهو يقول:

- ألم تَرَ أَن الله أظهر دينه

على كل دينٍ قبل ذَلِك حائد

غَدَاة أجال الْخَيل فِي عرصاتها

مسومةً بَين الزبير وخَالِد

فأمسى رَسُول الله قد عز نَصره

وَأمسى عداهُ من قتيلٍ وشارد

ثم جال ببصره في الأرجاء، مردِّدًا:

- اللهم أظهر دينك واهزم الروم وشرّد بهم.

وفي تلـك الأثنـاء بالتحديـد كانـت تـدور المعركـة الفاصلـة، هنـاك.. عـلى ضفـاف اليرمـوك.

## -٦-

في ليلة قل أن يجود بمثلها زمن، ألقى قمر مكتمل توسط جو السماء بخيوطه الفضية عبر نوافذ القصر الأبيض، لترتمي في أحضان بساط بديع، فازدادت مقصورة «بوران» حسنًا، ولقد جلست تتأمل الأنوار الفضية، فازدادت بها سحرًا.

تبادلت ابنة كسرى مع ذاك الواقف أمامها، نظرات صامتة قبل أن تعود لتأملاتها من جديد.

في حين بدا رستم مذهولاً مدققًا في اللوحة الفنية التي ارتسمت أمامه، ولقد كانت في كامل زينتها، حيث انسابت خصلات شعرها الذهبية على وجنتيها لتشكل مع وجهها الذي يشي بملامح فارسية خالصة مزيجًا بارعًا وقد اتقدت عيناها البنيتان ذكاء وفطنة.

ساد صمت مشوب بحذر قبل أن يقطعه رستم، متسائلاً برجاء:

- أوَلم تطلب مولاتي من مولاي يزدجر استبقائي؟

- لا مجال لحديث جديد يا رستم.. أنت تعلم أمر الشاهنشاه.. ثم لمن نترك أمر المعركة التي تنتظرنا هناك؟

- للهرمزان.. الفيرزان.. أو الجالينوس.. لأي من قواد فارس.

- ولكن يزدجر أراد رستم.. فارس فرسان إيران.

راق لرستم الإطراء الأخير، فانتابه زهو محبب قبل أن يقول برقة:

- بوران..الوضع معقد بالفعل.. المعركة ليست لصالحنا.

بدأ القلق على محيا بوران، فتساءلت:

- أوأنبأتك نجومك أمرًا؟

قال رستم مغازلاً في وجد واضح:

- أغنتني رؤية القمر عن النظر إلى النجوم.

حاولت بوران أن تظهر الغضب في لهجة تأرجحت بين الدلال والصرامة:

- رستم! أوَلا تقتصد من غزلك؟!

- وهل يقتصد إلا فيما يرجى نفاده، وحسنك ليس كذلك ولا حبي؟!

- أوَلم نتفق على أن تنتهي من هذا.. أوَنسيت؟

- أفنسيتِ أنتِ؟

أطرقت بوران ولاذت بالصمت، فاقترب رستم متابعًا:

-أونسيتِ ابننا فيروز.

التقت عيناهما لوهلة وقد بدا التأثر على محيا بوران،

ولكنهـا سرعـان مـا اسـتبدلت بـه لهجـة غاضبـة:

- رمز الخطيئة يا رستم.. سقطتي الكبرى.

نظرت إليه بعينين التمعت فيهما الدموع:

- لا بُدَّ أن نتناساها.

ثم تحولت لهجتها إلى الغضب وهي تتابع

- أزرميدخـت العميـاء تلـك، أشـعر بنظراتهـا ترمقـني سـاخرة شـامتة. (تحولـت لهجتهـا إلى الأسى): بـل يزدجـر نفسـه، أتعلـم أنـه قـد قـال لي حـين أمـر بإرسـالك: لا بـأس مـن بعـض الصـبر لأجـل فـارس.

- أونسى أننا من جئنا به؟! أو تناسى هذا الـ...

قاطعته بوران محتجة:

- تأدب يا رستم حينما تتحدث عن ملك الملوك.

اكتست كلماته بهيام واضح:

- دعينـا نضـع مـا مـضى يـا بـوران، ولنبـدأ عهـدًا جديـدًا مـن الحـب والهـوى.

بـدأ يزيـد في اقـتراب خطواتـه، ولكنهـا اسـتوقفته بكلماتهـا الهـادرة:

- أوَهذا موضع للحب وهؤلاء الغزاة على الأبواب؟

- الحـب لـكل زمـان ومـكان يـا بـوران.. لا تحـدّه حـدود ولا تؤثـر فيـه الأوضاع.

حاولت مستميتة أن تتماسك وتحوّل دفة الحوار:

- إني لأعجب كيف يهزم جنودنا أمام هؤلاء العرب الأجلاف.

هازئًا أجاب:

- أراكِ ترددين كلمات يزدجر، أوَلم تسمعي رسلهم أنهم مع اختلاف كلماتهم لكنها تنبض بالحكمة وتشع بالفصاحة.

ساخرة انسابت من فمها الكلمات:

- أراك تميل لهم.. بل لربما اتبعت دينهم قريبًا.

ثم تابعت متسائلة:

- أتؤمن بأن هناك جنة ونارًا. نعيمًا وعذابًا؟!

- أتعلمين متى أومن بهذا يا بوران؟ (بدا اهتمام وتحفز على وجهها، فتابع):

- إذا استبدل ربهم عذابه هذا بعذاب الحب.. لشد ما تكون جهنم قاسية إن كان هذا عذابها.

- لربما كان ربهم رحيمًا، كما يقولون!

- إذن فلا تجمعي علينا عذابين يا بوران.

بخفة التقط كفها الرقيقة بين كفيه وبدأ يقترب منها أكثر فأكثر، بدت لوهلة مستسلمة إلا أنها سرعان ما انتبهت، وقالت وكأنما تذكرت شيئًا ما:

- رستم، (دفعته عنها بإصرار ورقة)، لأعدك أن أتزوجك إن دحرت هؤلاء الغزاة، (ثم استدركت مسرعة): بل إن أتيتني

بـرأس عمـر.

- عمر؟!

نطـق بهـا رسـتم جزعًـا، فالتقطتهـا بـوران لتنسـاب كلماتهـا بـدلال واضـح:

- أمن العسير لهذا الحد أن نستعيد مجد فارس؟

- بـوران.. أرجـوكِ.. الوضـع جـد معقـد.. اسـألي يزدجـر أن يرسـل غـيري ليدخـرني لمعركـة فاصلة.

متجلدة، حاولت بوران أن تبدو:

- الشاهنشاه يريدها معركة فاصلة.

قال برجاء يائس:

- أتعلمين بأنني سأسير بالجيش في الصباح الباكر؟

شـعرت بغصـة في حلقهـا وحاولـت أن تتجلـد وتخفـي التأثـر واللوعـة، فـلاذت بالصمـت.

- إذن فلا أمل بوران؟

صمت مطبق لف المكان.

- وداعًا إذن مولاتي الملكة.

عـادت بذاكرتهـا إلى سـنوات مضـت يـوم جلسـت عـلى عـرش فـارس لشـهور، ولكنهـا تفاجـأت بنظـرات الألـم مـن رسـتم، فحدجتـه بنظـرة متسـائلة، فبادلهـا نظـرات تسـتنطقها برجـاء، إلا أن وجههـا بـدا محايـدًا إلى حـد بعيـد، بينمـا ظلـت عيناهـا تتابـع

رستم الذي مضى.

في حين عجزت عن متابعة دورها، فانخرطت في بكاء صامت عميق، ما لبث أن توقف، إذ شعرت بشيرين تدخل عليها مستئذنة:

- بوران.

أومأت برأسها لتأذن لها بالدخول، حيث تأملت شيرين الوجه الباكي، فتساءلت:

- أوَتبكين مولاتي؟!

أشارت بوران بوجهها أن لا.

- أوَمضى سيدى رستم؟

أجابت بوران بجلَد مصطنع:

- نعم يا شيرين لقد مضى إلى القادسية.. سيخرج الجيش غدًا.

بأسى تساءلت:

- الحرب من جديد؟

فأجابت بوران بمثله وقد نفد الجلد:

- وهل لنا غيرها؟

- نعم مولاتي لنحقن الدماء ولنحفظ مجد فارس!

- أتعودين لحديثك هذا يا شيرين؟ ألا تعلمين من نقاتل؟ يريدون لنا أن نخرج من ديننا.. أو ندفع لهم أموالنا.. أو

يقتلوننـا!

- ألا تكـوني منصفـة يـا بـوران؟! وهـل يقاتلوننـا إلا أننـا نمنعهم مـن نـشر دينهـم ببـلاد فـارس؟ ألا يقاتلوننـا ليدفعـوا الظلـم عـن بـني جلدتنـا؟ لكـني ليحزنـني أن غـير أهلنـا يريـدون بنـا الخـير مـا لـم نـرده لأنفسـنا!

مستنكرة قالت:

- أتسمين السوقة من الناس ببني جلدتنا؟

- ألم يخلقنا الله جميعًا بشرًا؟

- أنـا بنـت كـسرى، مثـلي كمثـل السـوقة مـن أهـل فـارس؟ بـدا الزهـو عـلى محيـا بـوران.

أجابت شيرين بهدوء:

- كلكم لآدم وآدم من تراب.

محاولة التملص، قالت:

- ولكنهم يريدون أن ينشروا دينهم بحد السيف!

- لا إكـراه في الديـن.. لـو أقمنـا العـدل في ربـوع فـارس وتركناهم ينـشرون دينهـم ويدعـون النـاس إليه مـا قاتلونا.

- إذن يسـاوون بـين السـادة والعبيـد.. ليتبعنهـم السـوقة والعـوام؛ حينهـا ويضيـع ملـك فـارس.

- وهل قام ملك على ظلم؟!

شـعرت بـوران بضعـف موقفهـا، فقالـت بلهجـة بـين الجـد

والهـزل:

- ما رأي دينك في الحب يا شيرين؟ أيؤمن به؟!

- أوقـام ديـن الإسـلام إلا عـلى مثـل هـذا؟ إن ديـني يدعـو لسـمو الـروح عـن المـادة، وهـذا هـو جوهـر الحـب.

- وهـل مـا بيـني وبـين رسـتم يحرّمـه هـذا الديـن؟ باهتمـام حَـذِر ألقـت بـوران بسـؤالها.

- العاطفـة السـامية تجـد مكانهـا في هـذا الديـن مـتى التزمـت بحدودهـا المشروعـة.. فـإذا مـا خرجـت عـن ذلـك... صمتـت مـترددة لوهلـة.

- أتقصدين فيروز؟

- نعـم يـا بـوران، يؤسـفني قـول ذلـك، ولكـن تلـك هـي الحقيقـة.. مبـادئ هـذا الديـن والخلـق سـواء بسـواء، بـل هـي نفسـها الفطـرة الـتي فطرنـا اللـه عليهـا.

مؤكدة، قالت بوران:

- ولـذا أجـد مثـل هـذا الضيـق في نفـسي، ولهـذا لا أجـد لي مكانًـا بـين الأسـوياء!

- لا يـا بـوران، يظـل اللـه مـع خطايانـا، رحيمًـا بعبـاده، ثـم إنـك إن أسـلمت يجُـب إسـلامك مـا قبلـه.

- أسـلمت؟! أوَمثـلي يسـلم؟ أدع ديـن فـارس وأضيّـع مجـد إيـران؟

- أتظنـين أن المسـلمين يضيّعـون هـذا المجـد؟ جـد واهمـة

أنـتِ يـا بـوران، بـل سـينقّونه ممـا لحقـه مـن ظلـم ويعيدونـه نقيًـا خالصًـا، وحينهـا سـيكون مجدنـا أي مجـد. مـا رأيـك يـا بـوران؟

تسـاءلت بلهفـة. لـم تجـد إجابـة حاسـمة، فـلاذت بالصمـت، ومـع أنهـا شـعرت براحـة عجيبـة تدفعهـا لقـول شيء لكنهـا أبـت!

*****

اشـتدت الريـح في يـوم عاصـف شـديد الوطـأة قـرب نهـر اليرمـوك، في حـين اجتمـع أمـراء جنـد جيـش الشـام في خيمـة قائـد الجيـش أبـو عبيـدة، وقـد لاح في الأفـق اقـتراب المعركـة، إذ بـدأ الحـذر في الظهـور عـلى الوجـوه القلقـة، ولقـد تأمـل خالـد بـن الوليـد الوجـوه قائـلاً بزهـو:

- الآن اتضـح كل شيء يـا أمـراء المسـلمين.. لقـد خدعنـا الروم الليلـة الفائتـة، فحـين سرنـا إزاء السـهل ظنـوا أننـا سـنحتل المـكان، فسـبقونا إليـه.. هـم الآن في السـهل.

مـرر خالـد إصبعـه عـلى الرقعـة الـتي تصـف ملامـح المـكان وهـو يتابـع:

- هـم الآن تحديـدًا بـين وادي العـلان، ووادي الرقـاد، ثـم أردف منتشـيًا، والنهـر.. نهـر اليرمـوك.

تهلل وجه عمرو مستبشرًا وهو يقول حذرًا:

- إذن فلا مجال!

أومأ خالد موافقًا كلماته، ثم قال وعيناه لم تغادران الرقعة:

- ليس لهم إلا أن يجتازونا أو يهووا في الياقوصة حيث يسقطون هناك.

ضاعف من تأملاته في الرقعة، ثم شرد ذهنه وهو يردد:

- إني أرى مصارعهم الآن.

قلّب بصره الحائر بين أمراء الجيش وهو يقول بشرود واضح وتناغم مع الرقعة:

- يا أمراء الجيش هذه هي المكيدة، ولا أريد منكم إلا الصبر.

- وما لنا ألا نصبر في سبيل الله. متحمسًا قالها أبو عبيدة.

ردد يزيد بن أبي سفيان بخشوع:

- {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا}.

أردف معاذ متأثرًا:

- اللهم اجعلنا نصيرًا لمن لا ناصر له!

بتأثر نطق خالد:

- لقد ابتعثنا الله، وما أتى بنا من صحراء الجزيرة إلا أن هؤلاء الروم عثوا في الأرض الفساد.

في مصر تجدهم يسومون القبط خسفًا، ليبدلوا دينهم ويفتنوهم فيه، وفي إيليا لا يراعون للأرض المقدسة حرمة، وهنا في الشام كما ترون واقعًا.

قال يزيد مصدقًا:

- أولم ترَ ما فعلوه بأهل المدن التي تركناها.. في كل يوم مظلمة ومفسدة.

تابع خالد

- والآن لا سبيل إلا هذه المعركة.. فلا يقولن أحدكم ما أكثر الروم وأقل العرب، إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان.

- ألهذا قسمت الجيش كراديس؟ تساءل أبو عبيدة.

فأجاب خالد متفهمًا: نعم.. الكراديس تزيد عددكم في أعين عدوكم، وتجعلكم تنافسون في قتال عدوكم.

- ولكن!

حيرة حقيقية تلك التي بدت على محيا يزيد، فأدرك خالد ما يعنيه، فقال:

- اعلم يا يزيد، فلقد سحبت ستة كراديس من كراديسك العشرة في الميسرة، وكذا فعلت معك يا عمرو في الميمنة.

بدا تساؤل حائر على وجه عمرو بن العاص، فقال أبو

عبيـدة:

- ولقـد أخـذ أبـا سـليمان اثـني عـشر كردوسًـا مـن كراديـس القلـب، ولـم يبـق لي إلا ثمانيـة.

انقلبت الحيرة على وجه عمرو إلى غضب هادر وهو يقول:

- أربعة وعشرون كردوسًا يا خالد؟

أجاب خالد بتفهم وروية:

- أجل فلقد أرسلتهم إلى الشمال والجنوب.

تساءل يزيد بحيرة لا تزال مرتسمة على محياه:

- وإذا كانـت المعركـة هنـا، فلـمَ ترسـل بأكـثر مـن نصـف الجيـش هنـاك؟!

قاطعه خالد بحزم:

- أي قـول هـذا يـا أمـراء الجيـش؟! فـإن تركنـا للـروم معـبر وادي الرقـاد شـمالاً ومعـبر وادي العـلان جنوبًـا، فأيـن الحصـار إذن؟!

بدأ عمرو لوهلة يدرك الأمر، ولكنه أتبعه بتساؤل حائر:

- أتخشى أن يهربوا؟

- ليـس هـذا فحسـب. عـاد يشـير إلى الرقعـة أمامـه. لـو خـرج الـروم مـن الحصـار وجـاؤوا بمـدد مـن الوجهـين لالتفـوا عـلى جيشـنا، وحينهـا تنقلـب كل الموازيـن.

تأمـل الجميـع حركـة يـد خالـد عـلى الرقعـة، وبـدأت ترتسـم

في أذهانهـم حقيقـة المـأزق الـذي يتحـدث عنـه، وبـدا ذعـر حقيقـي يرتسـم عـلى محيـا عمـرو:

- نبًا.. ولكن ماذا يفعل الروم الآن؟

تفـرّس خالـد في قسـمات وجـه عمـرو المذعـورة وهـو يقـول بزهـو:

- لـو بقـي لـدى الـروم عقـل، فمـا أراهـم يعتمـدون عـلى جندهـم، مـا في وسـعهم إلا أن يرسـلوا فرسـان العـرب ليحاولـوا أن يزحزحونـا.

عادت الحيرة من جديد لملامح يزيد، الذي قال: والحل؟!

- ويحـك يـا يزيـد! فمـاذا يفعـل أربعـة وعـشرون كردوسًـا في الشـمال والجنـوب.

بـدا إعجـاب واضـح يرتسـم عـلى وجـه أبي عبيـدة، وهـو يقـول بزهو:

- الله الله يا سيف الله!

ثـم اسـتعاد ذهنـه يـوم مؤتـة، فـردد كلمـة النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- يومهـا ثـم أخـذ الرايـة سـيف مـن سـيوف الله.

تساؤل ما طرق ذهن عمرو، فقال:

- ولمن عقدت على الكراديس يا خالد؟

- لعبـادة بـن الصامـت، وعمـير بـن سـعد في الشـمال، وسـعيد بـن عامـر في الجنـوب.

- ثلاثة من الأنصار؟!

فقال أبو عبيدة بإدراك كامل:

- من قرابة فرسان العرب لدى الروم.

ابتسم خالد وهو يومئ برأسه إيجابًا، وسَرّه أن فطن أبو عبيدة للأمر، ثم عاد ليتأمل الرقعة التي ارتسمت أمامه من جديد.. يتأملها بعمق.

*****

زحف الليل بطيئًا متثاقلاً على مدينة الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإن آوى عمر إلى فراشه، إلا أن النوم كان غنيمة صعبة المراس، وهدفًا بدا مستحيلاً في تلك الليلة.

وقد جلس الفاروق يهمهم بدعوات غامضة، قبل أن تفاجئه عاتكة بصوت حانٍ عذب:

- أولا تنام يا أمير المؤمنين؟!

نظر إليها نظرة خاوية، قبل أن يعود ليرجع بصره في الغرفة، ثم أطرق صامتًا.

- ولكنك لم تنم الليلة الفائتة أيضًا.. إنك تلقي بنفسك إلى التهلكة يا عمر.

نظرات خاوية ألقاها قبل أن ينطق بأسى:

- ويح عمر إن لم يغفر له رب عمر! (بحيرة حقيقية تابع) إن نمت بالنهار ضيّعت الرعية، وإن نمت بالليل ضيعت نفسي!

- ولكنك لم تكمل صلاتك هذه الليلة.

- صلاتي؟!

نظر متسائلاً وتابع:

- والله لا أدري أصليت نصفها أم ثلثها! إني لأفتتح السورة فلا أدري في أولها أنا أم في آخرها.

- حتمًا تظل هكذا يا أمير المؤمنين؟

أرسل بصره إلى اللا شيء:

- اللهم انصر جيش الشام!

- والله لن يخذلك الله وسينصر جيش المسلمين هناك.. ألا تسمع عن ظلم الروم بأرض الشام وبأرض مصر؟ ما كان الله لينصر قومًا فشا فيهم الظلم حتى يردنّ الناس عن دينهم ويبدلن مذاهبهم.

تأملها عمر وهو يقول بحيرة:

- أترين أني قد أقمت العدل حقًا يا عاتكة.. أم تراني خالفت نهج النبي -صلى الله عليه وسلم- وخليفته؟

تنهدت تنهيدة عميقة قائلة:

- ما أراك إلا ستتعب من بعدك يا عمر. أترى أنك مثل

هرقل هذا، {أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ}.

عاد عمر يقلب بصره في الحجرة ويقول:

- أنتِ لا تدركين كيف حال المسلمين.. الفرس يريدون أن يهاجموا جيشنا في العراق.

- أفي أمر الشام نحن، أم في أمر العراق؟!

- ألم أقل لك إنك لا تدركين شيئًا.. لو انتصر الروم في الشام لما سيرت المدد لأرض العراق، ولأكلنا جيش رستم هناك، ولسأل الله عمر :أءلقيت بالمسلمين إلى التهلكة يا عمر؟!

- وهل الفرس أفضل حالاً من الروم؟! ألم يرفضوا أن ندعو الناس إلى دين الله حتى لا يفطن الناس بالظلم ويطالبوا بالسوية؟! هل يفلح قوم ظلموا بني جلدتهم؟!

- أعلم ذلك يا "عاتك".. لقد ألقى الله علينا بتبعة جسيمة من نشر دينه، فإذا نحن بين أسدين يمنعاننا عن ذلك (ثم كمن تذكر) أتعلمين أنهم يشيعون في الناس أننا نجبر الناس على الدين بحد السيف؟!

- لا يصدق مثل هذا القول إلا من عمى الله قلبه وعينيه عن الحق.. أهل البلاد المفتوحة كلهم يشهدون بعدل المسلمين وسماحتهم، ومن كذب الحق استحق أن يحيا في الضلالة.

نظر إليها عمر معجبًا وهو يتحرك خارجًا:

- لقد أجرى الله الحق على لسانك يا "عاتك".

تساءلت بلهفة:

- إلى أين يا أمير المؤمنين؟

- سأخرج لأعس الناس الآن.. رب جائع أو أرملة أو مسكين، أخفف عنهم، عسى ألا يسألني الله غدًا أضيعت أمة محمد يا عمر!

قالها ثم مضى وقد تبعته بنظرة قلقة، وهي تتمتم:

- لشد ما تتعب من بعدك يا ابن الخطاب.

*****

اشتدت الريح أكثر وأكثر، وارتفع الغبار ليلف أرض المعركة، التي دارت عنيفة قوية بين صليل السيوف والتحامات الجند، وبدأ يوم من أيام الله، شهد عليه نهر اليرموك.

لقد خلت خيمة أبي عبيدة قرب المضيق إلا من خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل، ولقد وقف خالد يقول بحذر:

- وكما ترى يا عكرمة، عمرو بن العاص على الميمنة، ويزيد بن أبي سفيان على الميسرة، وأبو عبيدة ومعاذ في مؤخرة القلب، بينما سعيد بن زيد وشرحبيل بن حسنة في مقدمته.

قاطعه عكرمة بضيق: ونحن هنا؟

• هنـا لنحـرس المضيـق.. هـذا المضيـق هـو هـدف الـروم، والله لا يجيزونـه إلا مـرورًا عـلى جسـدي.

- ولكـن القتـال ليـس هنـا.. ولـن يصـل إلى هنـا. (بضيـق تابـع): ألا تدعـني أنـال الشـهادة؟

- لأن تنتـصر لديـن اللـه وترفـع رايتـه خـير عنـد اللـه مـن الشـهادة، إن اللـه لـم يبعثنـا لنمـوت، وإنمـا لنحيـا ونحـيي أهـل الأرض، فـإن نلنـا الشـهادة فـذاك فضـل منـه، لئـلا نجـبن عـن القتـال.

- دعـني مـن مثـل هـذا القـول.. ودعـني ألقـي بنفـسي في قلـب المعركـة.

- أتنازعني الأمر يا ابن أبي جهل؟

انفجر عكرمة ثائرًا:

- ما أراه إلا ابن عمك.. وما أرى الوليد بخير منه!

لكزه خالد في كتفه معنّفًا:

- أبدعـوى الجاهليـة ندعـو في يـوم مـن أيـام اللـه.. أوَلـم تسـمع أمـر أبي عبيـدة بطاعـتي؟ أم أنـك سـتخالف أمـر أمـير الجيـش أيضًـا؟

- والله ما أرى إلا أن صدق أمير المؤمنين.

- وماذا قال ابن حنتمة أيضًا؟

- قال بأننا بنو مخزوم لا نستشهد.

- والله لأكذبنّ اليوم ما قال عمر.

جاء صوت صارخ مستغيث، دخل بعده ضرار بن الأزور الخيمة، وهو يقول:

- لقد دخل في الميمنة أمة كبيرة من العدو.

تأمل خالد الوضع لبرهة قبل أن يصرخ في جيشه:

- يا قيس بن هبيرة، انجد الميمنة بجند ممن معك.

قالها ليرى الضحاك بن قيس قادمًا وهو يقول بذعر:

- زالت الميسرة عن المصاف يا خالد وركبت الروم أكتافنا.

بخفة التقط خالد قلنسوته وأسرع بالخروج، وهو يصرخ بعكرمة:

- الزم مكاني يا عكرمة ولترسل إلى القعقاع بن عمرو.

وانطلق خالد إلى الميسرة، في حين بدا صفير الريح يشتد، وتجلّى للعيان أن المعركة تزداد عنفًا.

*****

كان مجلس أمراء جيش الشام يردد نظرات حائرة، وخالد يردد بفخر:

- لقد نجح عبد الرحمن بن أبي بكر في قتل ابن قناطر، قائد ميمنة الروم، وقتل قيس بن هبيرة، الدنجار قائد الميسرة.

قاطعه يزيد بن أبي سفيان قائلاً:

- يا أبا سليمان.. رماة الأرمن أحدثوا في المسلمين الجروح وأصابوا عيون المئات.

قال معاذ بن جبل:

- أرى أن تنتدب لهم من المسلمين من يقاتلوا في سبيل الله.

شارك عمرو قائلاً:

- الأمر جد خطير يا خالد، نحن محاطون بجنود الروم.

قال خالد مؤيدًا:

- نعم، ولقد خرج الزبير مع جمع من صحبه ليمهّد الطريق إلى هناك.

بدت حيرة قلقة على محيا أبي عبيدة:

- وهل يكفى هذا؟ أرانا نحتاج كتيبة كاملة يا خالد.

قال خالد بعزم:

- لقد انتدبت بني مخزوم لهذا الأمر، ولقد أرسلت عكرمة يأخذ البيعة من الناس على الموت.

دخل الزبير بن العوام مسرعًا، وقد أصيب إصابة واضحة

في كتفه، وقال:

- الأمر خطير يا خالد.. نحتاج لمن يقاتل حتى الموت ولا مناص من ذلك.

تبعه عكرمة مهللاً:

- لقد بايعني عدد كبير يا خالد.

ارتسم البِشر على محيا خالد وهو يقول:

- والآن اذهبوا، أمراء الجيش، إلى مواقعكم ولتزحف الميمنة والميسرة إلى الأمام ليدفعوا العدو وليتقهقر القلب.. فلتستدرجوا قلب الروم بعيدًا عن التل.

مرر إصبعه على الرقعة ليوضح بدقة ما يقصد قبل أن ينصرف الأمراء، وقد بقي عكرمة، وقد توجّه لخالد ليقول بأسف واضح:

- سامحني يا أبا سليمان إن كنت قد أسأت إليك.

ربت خالد على كتفه وابتسامة عذبة مشوبة بالثقة ارتسمت على محياه:

- لا تثريب عليك يا عكرمة.. لتريني اليوم من بني مخزوم ما يحبط زعم عمر.

- أوَتذكر حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- عن عزق لأبي جهل في الجنة.

دهش خالد لوهلة، فبدا التأثر جليًا على وجه عكرمة، وهو يتابع:

- إني لآمل أن أكون أنا هذا العزق يا خالد.

قالها ثم مضى وتبعه خالد ببصره وهو يغالب دمعًا ترقرق من عينيه، قبل أن يلمح عمرو بن عكرمة، ذلك الفتى الصغير ينطلق خلف أبيه، فتساءل بدهشة:

- إلى أين يا ابن عكرمة؟

- مع العزق الكبير يا أبا سليمان، فأنا العزق الصغير.

قالها ثم مضى لا يلوي على أحد.

*****

اشتدت رحى الحرب، وتجلّى جيش المسلمين يتقدم، في حين تناول خالد قلنسوته ملقيًا بنفسه في قلب الحدث.

تحرّك سيف الله ما بين الميمنة والميسرة والقلب، وجاء صوته حاسمًا من بين صفير الرياح، والظلام الذي خيّم على المكان.

وقد كان صوته مرشدًا ودليلاً:

- يا مسلمون، الصبر.. الصبر.. يا أهل الإسلام احملوا الساعة.

ترددت كلماته مشعلة في نفوس الجيش رغبة النصر، وقد اقتربوا منه، وقد بدا قطفًا دنيًّا يسيرًا.

- يـا بـني الإسـلام احملـوا عليهـم الآن.. إلى الياقوصـة.. إلى الياقوصـة.

كررهـا، وكلمـا تكـررت ازداد اندفـاع الـروم نحوهـا، وبـدؤوا في التهـاوي والتهـاوي.

ومـع طـول المعركـة لـم ينقـص عـزم المسـلمين شـيئًا، فلقـد ظلـوا يدفعـون بالـروم إلى هنـاك وهـم يتأملـون السـماء، حيـث هنـاك في الأفـق قـد كان يـبزغ فجـر.. فجـر جديـد.

## -٧-

سائر حائر يتردد بين آلاف التساؤلات التي ضج بها عقله.

يـدور بـصره فيمـا حولـه قبـل أن يرجـع إليـه البـصر خاسـئًا وهـو حسـير.

ينتظـر وينتظـر لعـل خـبرًا يُـشرِق في نفسـه الأمـل.. ولعـل تلـك النسـمات الحـارة الـتي تلفـح وجهـه تعيـد إلى روحـه الحيـاة مـن جديد.

كمـا هـو.. لـم تتغـير حالـه منـذ أن علـم بـأن تلـك المعـارك الدائـرة في فتـوح العـراق توشـك أن تتقلـص في واحـدة.

معـارك السـنين الفائتـة بمـا فيهـا مـن انتصـارات، اهـتز كـسرى لهـا عـلى كرسـيه فرقًـا، وبمـا تخللهـا مـن هزيمـة يـوم الجـسر.. كل هـذا تتوقـف نتائجـه عـلى معركـة سـتدور رحاهـا هنـاك عـلى أرض القادسـية ويقودهـا سـعد.

ليـل الفـاروق لا يهنـأ فيـه بنـوم.. تتقاذفـه الأسـئلة وهـو ينقّـح رسـائل سـعد كلمـة كلمـة، ليخلـص إلى الدقائـق والشـوارد.

بـل ونهـاره كذلـك يقضيـه هائمًـا في الطريـق المـؤدي إلى القادسـية.. سـائلاً الغـادي والرائـح حـول الموقـف هنـاك.

وكـذا عقلـه لا يتركـه يهنـأ للحظـة، وهـو يلـح في إصرار متسـائلاً

عـن نتيجـة الانتظـار.

يسـتدعي عقلـه أحـوال جيـش سـعد المرابـط هنـاك، بل سـعد نفسـه المحبـوس الآن بقـصر قديـس يقـاسي المرض.

تُـرى هـل سـيرحّب تـراب القادسـية بجثـث الأكاسرة، كمـا وأد تـراب الشـام مـن قبـل جنـد هرقـل؟

وهـل سـتزف الأيـام المقبلـة البـشرى بنـصر مـؤزر كنـصر اليرمـوك؟

وهل سيتهاوى جند يزدجر في ياقوصة العراق؟

بل هل هناك ياقوصة بالقادسية ليتهاوى إليها الفرس؟

ومن يدري؟! لربما قد تهاووا بالفعل، ومنذ زمن.

*****

هنـاك في تلـك البقعـة النائيـة مـن أرض العـراق، الباقيـة مـا بقـي الزمـان، وفي لحظـة نـادرة ويـوم خالـد مـن أيـام الله في أرضـه.

دارت معركـة فاصلـة حاسـمة، حسـمًا نـدر أن يجـود بـه تاريـخ البـشر إلا مـرة في كل جيـل، ولربمـا بخـل فـلا يجـود.

هـا هـي جنـود فـارس قـد أتـت بخيلهـا ورجلها تتنسـم نسـمات نـصر باعـده الزمـن ووارا الـتراب واقتحمـه فرسـان العـرب

القادمون من شبه الجزيرة، فانتزعوه من أيدي أبناء كسرى، بل ذهبوا بكسرى، فما عاد كسرى لفارس وما عاد لفارس من كسرى.

سعود العرب علت لتسامي النجوم، تلك التي يراها رستم كل ليلة فيوقن بأن «درَفْش كَبْيَان» رايتهم العظمى توشك أن تسقط قريبًا.

ولكنه يخادع نفسه بأن ربما أتى أبناء إيران بالجديد ولكنه -والحق يقال- لا يجازف بهذا، إنما يأمل أن تنقلب تلك السعود نحوسًا، ليعود جيش المسلمين إلى مليكهم عمر بالهزيمة، ويبوءون بوزرها.

يأمل هذا كل ليلة، متأملاً النجوم، راجيًا أن تبدل ما أنبأته، ولكن يبدو أنها حسمت إرادتها منذ زمن بعيد، ولقد أرادت أبدًا جيش العرب.. جيش عمر.

*****

- تبًا لكم من جنود، أما عاد لنا من فارس يكافئ هؤلاء العرب؟!

قالها رستم صارخًا وهو يشهد سقوط فارس جديد من فرسانه، في المبارزة التي أراد المسلمون أن يبدؤوا بها المعركة.. وقد تجلّى أنها تتجه كليًا لصالح جيش المسلمين.

قال الفيرزان بهدوء:

- كل ما في الأمر أن هؤلاء العرب بارعون في المبارزة أيما براعة.

انفجر رستم غاضبًا:

- وهل تفلح فارس وأولها فارس معفر في التراب؟!

ثم اتجه نحو رسوله إلى الجيش وهو ينادي بأعلى صوته:

- يا جند الشاهنشاه.. اثبتوا وشدوا على بجيلة.

وكالبرق عصف ما يقارب من نصف جيش الفرس بتلك الفئة من جناح جيش المسلمين، وجن جنون رستم إذ رأى فئة عربية تدافع عن بجيلة ببسالة إثر أمر سعد لهم.

وقد استطاعت -نوعًا- أن توقف من خطر الفيلة وتدفعها بعزيمة تلين لها الجبال.

- لقد أوقفوا ثلاثة عشر فيلاً! من هؤلاء يا جالينوس؟!

أجاب جالينوس قائده الثائر، وهو يتابع ما يلاقيه جيش الفرس من مقاومة:

- إنهم بنو أسد سيدي رستم.. إحدى قبائل العرب.

رد رستم بسخرية غاضبة:

- فكيف بالأسد إن كان هؤلاء له أبناء؟!

ثم تابع بحزم وصرامة وقد استفزه الموقف:

- إليهم يا جالينوس.. إليهم يا ذا الحاجب..أبيدوا بجيلة.

ثم تابع وهو يشير إلى المعركة العنيفة الدائرة عند تلك البقعة من جيش العرب:

- وأبيدوا هؤلاء الأشبال.. أبيدوا بني أسد!

*****

اصطفت صفوف المسلمين خلف أميرهم عمر لصلاة الظهر بمسجد النبي -صلى الله عليه وسلم- بالمدينة، في حين ردد الخليفة تكبيرة الإحرام بخشوع وقوة، لتتلقفها الصفوف من بعده، ليرددها كذلك ولتنتقل عبر قوى لا تنتمي إلى البشر.. إلى هناك.

- إلى القادسية.

حيث رددها الليث سعد بن أبي وقاص، وهنا بدأت قوى البشر تسجل ما لم تسجله قبلاً من خوارق.

الحق يقال إن تاريخ العرب بطوله لم يشهد يومًا كالقادسية من قبل.

ويقال أيضًا بأن الفرس لم يلاقوا يومًا مثله في الحشد والقتال.. حتى عندما دحرهم الروم وعادوا من بعد غلبهم ليغلبوا، لم يتحفز أبناء كسرى ليوم أبدًا كيوم القادسية.

لنصر طال انتظاره أتوا بقائدهم المظفر وفارس فرسانهم.. ربما لمر الهزائم التي ذاقوها في فترة وجيزة.. ومن يدري؟!

لكن ما يدركه الجميع أن هذا لهو يوم الحسم مع هؤلاء القادمين من الصحراء.. يوم ستقام بعده الاحتفالات في المدائن.. أو تسقط درَفْش كَبْيَان.. وإلى الأبد.

ربما لهذا أو لغيره اندفعت صفوف المسلمين ما إن سمعوا تكبيرة سعد الرابعة.. لتصيح في الآفاق بالله أكبر.. وتهاجم ذاك الجيش الفارسي بجنده ومشاته وفرسانه، والأنكى والأشد بتلك الفيلة التي جمعها رستم، ومع هذا تجد العربي لا يهابها ولا يخشاها، فيرمونها بالنبل ويهاجمونها فرادى وزرافات حتى أسقطوا أقنعتها وقتلوا حماتها وبدا أن المعركة العنيفة متوازنة وإلى أبعد الحدود.

*****

-نعمَ القوم بنو أسد!.. لقد ردوا هجوم الفرس وأنزلوا بهم.

قالها سلمان بفخر متأملاً المعركة، فقال سعد بعزم:

-ليت كل المسلمين اليوم بنو أسد.. لقد كانوا للمسلمين ردءًا وحجابا. ثم تابع مازحًا: أوَلا تشفق على قومك اليوم يا سلمان مما يلاقونه؟!

نظر سلمان إلى المعركة مليًّا، قبل أن يقول بصدق:

-لربما أشفق على من مات منهم ولم يبلغ الهداية.. ولكن إشفاقي حقًا على من يحيون هناك في بلادي.. في أرض

إيـران، حيـث ذاقـوا الـذل ألوانًـا عـلى أيـدي هـؤلاء.. أشـفق أكـثر عـلى مـن يمـوت الآن في بـلاد فـارس قبـل أن تبلغـه شـعلة الهدايـة الـتي خرجـت أتنسـمها منـذ سـنين.

ثـم نظـر إلى سـعد وقـد بـدا أن عيـني سـلمان اغرورقتـا بالدمـوع:

- سـننتصر اليـوم يـا سـعد بـإذن الله.. وحينهـا سـأعود إلى بـني قومـي مبـشرًا، وسـيرى حينهـا المسـلمون جميعًـا كيـف تكـون فـارس في ظـل العـدل والإسـلام.

ثم وكأنما يغير دفة الحديث:

- أوَلا تنتقـل إلى مـكان آخـر يـا سـعد.. هـذا القـصر ليـس بالآمـن، ولـو أعـراك الصـف فـواق ناقـة لأخـذت.

قال سعد بألم:

- أيـا ليـت البلقـاء تحملـني! أولا تسـمع مـا يشـاع مـن أني جبنـت؟! لا أتحـرك حـتى يـأتي أمـر الله ولـو أخـذت.

أومأ سلمان برأسه موافقًا، ثم سأل باهتمام بادٍ:

- أولم تأت أنباء عن مدد الشام؟

تأمل سعد المعركة وهو يقول حالمًا:

- ليتـه يحـضر ذلـك المـدد. ثـم أردف بثقـة: ويـل للفـرس مـن القعقـاع إن قـدم!

******

تأمل رستم ذلك الفارس العربي الذي ظهر يطلب المبارزة، ولقد عزم رستم على أن ينهي المبارزة سريعًا اليوم، فقال بحسم :

- لا يخرجنّ إليه أحد من فرسان فارس.. لأرمينّ هذا العربي بمن يُعلِمه بأن أبناء فارس ليس كمن لاقاهم من جند الروم يوم اليرموك.. هلم أشد العرب على العجم.. إليه بهمن جاذويه.. هيا يا ذا الحاجب.

وخرج ذو الحاجب للقتال، جبل لجبل في صراع قد يحسم كثيرًا من معركة اليوم.

كان مظهر بهمن جاذويه رهيبًا، بوجه كئيب وحاجبين كثّين انسدلا حتى كادا يحجبان النظر عن عينين اتسعتا لتشمل الموقف بأكمله.. وتوحي برعب خفيّ في وجوه أعدائه.. ولقد كان يحمل فخرًا لا يحمله أي من فرسان فارس، فهو قائد نصر الجسر، النصر الوحيد للفرس في العراق -حتى الآن- كل هذا وغيره أهّله ليواجه ذلك العربي القادم قريبًا من قتال الروم.

لهذا أو لغيره كان ذو الحاجب يؤمل كثيرًا على النصر في تلك المعركة، ولكن يبدو أنه قد غفل عمن يواجه، فأمامه مباشرة كان يقف رجل في القتال بألف.

أمامه كان يقف القعقاع.. القعقاع بن عمرو التميمي.

تساءل القعقاع بحزم عن هوية مقاتله، الذي أجاب بقوة وفخر :

- أنا ذو الحاجب بهمن جاذويه.

والتقط القعقاع إجابته ليردد بصوت خير عند النزال من ألف رجل:

- الله أكبر.. يالثارات أبي عبيد وسليط! يالثارات أصحاب الجسر! وأردف الجيش المسلم كله التكبير واهتز ذو الحاجب وهو يرى القعقاع ينقضّ عليه كأسد كاسر جريح.. وهذا يعني أن بهمن جاذويه قد صار ماضيًا! فما كان إلا أن تبادلا ضربة، فثانية، حتى خر بعدها ذو الحاجب صريعًا، واندمج جيش المسلمين بعدها في التكبير بنشوة عارمة.. ودارت الملحمة.

تأمل سعد من موضعه بقصر قديس ما يدور من مبارزة على أرض المعركة، قبل أن يسأل سلمان:

- أوليس هذا هو الفارس التاسع والعشرين الذي يقتله القعقاع؟!

نظر إليه سلمان وهو يقول بابتسامة مشرقة:

- نعم، فلقد بقي فارس واحد ليبر القعقاع بقسمه.

أشار سعد إلى المعركة وهو يقول بقلق متزايد:

-ألا ترى كيف انتظم جيش الفرس اليوم؟! ثم نظر إلى اللا شيء: لا أظن أن اليوم سيمر بسهولة.. مرأى هذه الفيلة يثير الرعب.

انتقل القلق لسلمان فتساءل:

-أوَلم تخبر القعقاع بشأنها؟!

أومأ سعد إيجابًا:

- ولقد أخبرني واثقًا بأنه سيجعل للعرب فيلة كما للفرس فيلة.

- فيلة للعرب!

نطقها سلمان حذرًا، قبل أن يلتفت كلاهما للمعركة الدائرة، حيث ألقى القعقاع بسيفه واحتضن الفارس الفارسي بترسه، ولم يتركه إلا ذبيحًا كشاه، قبل أن يكبّر تكبيرة ارتج لها جيش فارس، ليتبعها سعد بتكبيرة أخرى، وبدأت تدور رحى الحرب.

وعنت هذه المرة موتًا.. أو حياة.

*****

شكّل الصراع في هذه المعركة وضعًا فريدًا تعجز عن وصفه الكلمات، فقد التحم الجيشان التحامًا عجبًا، وكأنما أراد جند الفرس دحر عدوهم إلى المدينة، وكان جيش العرب يسعى إلى نقل المعركة إلى المدائن، وفي مثل هذا الوضع النادر تعني بقعة من الأرض الكثير، ويعني الحفاظ عليها مزيدًا من القتلى والجرحى.

وإن بدت المعركة متكافئة، وإن مالت في بعض مراحلها لصالح العرب قليلاً، إلا أن ما حدث قد قلب الأوضاع رأسًا

عـلى عقـب.

وكأنمـا بـرزت مـن العـدم، ظهـرت كتيبـة مسلسـلة مـن قلـب جيـش الفـرس، وكأنمـا أدركـوا للتـو أن المعركـة لا بُـدَّ أن تُحسـم اليـوم.

تقدمـت بـإصرار ككتلـة متماسـكة مـن المعـدن، صـوب قلـب الجيـش العـربي. ومـا إن بـدأ جناحـا الجيـش في محاولـة يائسـة للتطويـق حـتى كانـت الكتيبـة قـد انقضـت عـلى الميـسرة، وبدأت الميـسرة تواصـل رحلـة القلـب في التراجـع، واتضـح لوهلـة مـا يعنيـه الأمـر، فتلـك الكتيبـة إنمـا أرادت القـصر.. قـصر قديـس.. أو بالأحـرى أرادت أن تنهـي المعركـة بنـصر نهـائي.. ولفـارس هذه المـرة.

*****

اجتاحـت النشـوة رسـتم وهـو يتابـع مـا تقوم بـه تلـك الكتيبة، حيـث واصلـت تقدّمهـا نحـو قـصر قديـس، وشـعر لوهلـة -وهـو يرفـع بـصره علّـه يجـد في كبـد السـماء نجمًـا شـاردًا يسـائله- بـأن الموقـف قـد اختلـف.. تمامًا.

هـا هـي المعركـة يعـاد صياغتهـا مـن جديـد.. وهـا هـو القـصر يلـوح في الأفـق.. بـل هـا هـو التاريـخ يوشـك أن يكتـب اسـمه في سـجل قـواد المعـارك المنتصريـن.. عـاد ليتأمـل مـا آل إليـه الوضـع، وفجـأة بـلا أي مقدمـات ظهـر فـارس ملثـم يرتـدي

السواد من أقصى ميسرة جيش المسلمين، لينقضّ بقوة على ميمنة جيش فارس، حيث أنزل بهم النوازل، قبل أن ينتقل إلى الميسرة فيعيد فيهم الكرّة، وظل كشعلة من لهب ينتقل بين الميسرة، فالميمنة، والقلب، مُنزلاً فيهم القتل والجرح، ومع ما أشاعه في صدور عدوه من رعب إلا أن الكتيبة المسلسلة وكأنما قد انفصلت منذ زمن بتمامها عن الجيش، بل عن المعركة، لتواصل تقدمًا لا يردعه رادع.

وبدا أن التاريخ سيعيد تسطير صفحاته من جديد، قبل أن يظهر في الأفق ما قلب الموازين من جديد.. فقد كان في هذا اليوم للعرب فيلة.. فيلة عربية.

*****

اهتز كورق شجر في يوم عاصف مهيب.. كطائر بلله الندى ليدرك أن الذي علاه بالدرة منذ لحظات، بدت له كدهر، هو عمر.

طالعه ابن الخطاب بوجه غاضب مزمجرًا:

- لا تمت علينا ديننا أماتك الله.. إذا قلت فأسمع وإذا مشيت فأسرع.. قالها ثم التفت إلى ذلك الذي كان يسير جواره:

-ما لي أرى على محياك الغضب؟! أولست مثله تمشي الهوينى وتزعم النسك؟!

بدا الغضب على محيا الرجل وهو يلمح جمعًا من الناس تجمهر حول الموقف، بينما تابع عمر بصوته الجهوري مخترقًا خلجات الأنفس:

- إني لأعلم بغضبك.. وأعلم أنك لوددت لو قلت: وما لي لا أغضب له وهو أخي في الدين! أفلا أغضب له! أفيقول الله {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ} وتقول أنت هذا أخي وهذا ليس لي بأخ؟!

ثم التفت بقوله إلى الجمع المتجمهر:

- بَلَغَنِي أَنَّكُمْ تَتَّخِذُونَ مَجَالِسَ، لا يَجْلِسُ اثْنَانِ مَعًا، حَتَّى يُقَالُ: مِنْ صَحَابَةِ فُلانٍ، مِنْ جُلَسَاءِ فُلانٍ حَتَّى تُحُومِيَتِ الْمَجَالِسُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنَّ هَذَا لَسَرِيعٌ فِي دِينِكُمْ، سَرِيعٌ فِي شَرَفِكُمْ، سَرِيعٌ فِي ذَاتِ بَيْنِكُمْ، وَلَكَأَنِّي بِمَنْ يَأْتِي بَعْدَكُمْ يَقُولُ: هَذَا رَأْيُ فُلانٍ، قَدْ قَسَّمُوا الإِسْلامَ أَقْسَامًا، أَفِيضُوا مَجَالِسَكُمْ بَيْنَكُمْ، وَتَجَالَسُوا مَعًا، فَإِنَّهُ أَدْوَمُ لأُلْفَتِكُمْ، وَأَهْيَبُ لَكُمْ فِي النَّاسِ.

بدا الارتياح على الوجوه، قبل أن يسأل هذا الذي خفق بالدرة منذ لحظات بشماتة بادية:

- وكيف فعل جيش سعد الآن؟ لقد طال أمد المعركة على ما يبدو!

كان سؤاله كشرارة اتقد لها عقل عمر، ليعود ليلتفت إلى شغله الشاغل وهمّه المقيم.. هناك حيث معركة تدور رحاها ليومها الثالث، وإن وافته أنباء عن فرار لفيلة فارس

ودهسها لفئة من جيش رستم قبل أن تولي وجهها شطر المدائن.

كان يعلم أن المعركة الآن بوضع أفضل، ولكنّ قلقًا مبهمًا زايله متخمًا عقله بعشرات التساؤلات، ومع هذا أجاب بثقة:

- سيأتي رسول سعد ليخبرنا اليوم بإذن الله.

قالها ثم عاد يفكر فيما يدور هناك.. على تراب القادسية.

*****

غالب رستم دموعًا مارقة، أبت إلا أن تغادر مقلتيه، فأطبق جفنيه بإصرار، وقد اكتنفه حزن دفين وهو يتابع صفوفه المهلهلة وجيشه الممزق.

ثم عاد ذهنه يسترجع أحداث اليومين السابقين، فمنذ أن قتل المسلمون فيليّ المقدمة وهرب باقي الفيلة وهو يعلم أن المعركة قد حادت عن النهج الذي رسمه، وبدأت تنحى منحى جديدًا.

فلقد دارت المعركة يومها، وجيش فارس قد زاغت منه الأبصار، وبلغت القلوب الحناجر، وهم يظنون الظنون، بتكبيرات ثلاث سمعوها من خلف جيشهم هذه المرة.

ولقد استمر القتال ليلاً، حيث غيّر رستم نهجه في تلك الليلة، فزحف بجيشه كله مستعيدًا ذكرى الكتيبة المسلسلة،

ولقد كانت ليلة من ليالي التاريخ، حيث انقطعت الأخبار عن سعد كما انقطعت عن رستم، وقد تناهى إلى مسامعهم صليل السيوف ملتحمًا مع صرير الريح.

- سيدى رستم.. أدرك الجيش.

مزقت عبارة هرمز خيوط أفكار رستم التي كان ينسجها طويلاً، فنظر بغير اكتراث متسائلاً:

- ماذا حدث يا هرمز؟!

- لقد أحدث جيش المسلمين ثغرة في جيشنا يا سيدي!

أجاب رستم بابتسامة ساخرة:

- وما الجديد وجيشنا كله مليء بمثلها؟!

بدا الرعب على محيا هرمز وهو ينطق بأسى:

- في القلب سيدي رستم.. كتيبة عربية كاملة مزقت صفوف القلب وتتجه نحونا.

كان جليًا أن قوله لم يحرك ساكنًا من رستم، الذي قال بيأس:

- هل لي أن أسألك طلبًا يا هرمز؟

قال هرمز بصدق:

- بل أمرًا لا طلبًا سيدي رستم.. فأمرك مطاع.

ارتسمت ملامح الارتياح على محيا رستم، لتختلط بالإرهاق الجليّ على وجهه، وهو يخلع خاتمه ويمد يده إلى هرمز،

قائلاً برجاء:

- لتنطلق الآن ولا تلوي على أحد.. ولتمنح سيدتك بوران هذا الخاتم، ولتقول لها... (صمت لحظات مترددًا) قل لها لتحفظه مع وديعتي عندها.. (غالب رستم دموعًا ثائرة) وقل للشاهنشاه إن رستم قد مات في سبيل فارس.

قل له لتقيم العدل وتساوي بين أهل فارس، ولن يبلغك هذا الجيش ولا يدركك وإلا... (صمت مرة أخرى) وإلا ليملكن أولئك العرب أطراف إيران. قل له هذا يا هرمز ولتنطلق الآن.

وانطلق هرمز وقد اختفى في الأفق، تاركًا رستم مسترجعًا قول هذا العربي الذي لاقاه في الطريق:

- إنك تجادل القدر يا رستم.

هنا هبّت رياح عنيفة أخمدت النيران المشتعلة قرب مجلسه، وتجلّى أن درَفْش كَبْيَان ستسقط.. وإلى الأبد.

## -٨-

-اللهم نصرًا كنصر اليرموك.

يرددها قلبه خاشعًا وقد قلب بصره في الطريق علّه يجد طيفًا حاملاً بشرى النصر.

بشرى قد وجد ريحها وينتظر خبرها.

تراه يتحيّن القادم من أرض القادسية، وكأنما هو آخر أمله في الحياة.

يلهج إلى الله بدعاء فريد وعين خاشعة، سائلاً النصر طوال ليله.

ويتأمل الصحراء وقد ألهبه شعاع الشمس ولفحه القيظ في يوم عسير، جد عسير.

كل صباح تبصره هناك لا يلوي على أحد، ولا يعنيه في شيء ما لاقاه من عنت.. إلى أن رآه من بعيد.

فارسًا انطلق جواده في زهو لا يحمله إلا منتصر.

وبشرى تكاد ملامح وجهه تزفّها جلية واضحة، كشمس مزهوة في صباح جميل.

ولكن كلمة ينطقها فمه هي أقصى أمله ومبلغ غايته.

-هل لك أيها الشيخ أن تخبرني أين أجد أمير المؤمنين؟

-بربك ماذا فعل المسلمون في القادسية؟

يستقبل خبر النصر، فيكاد قلبه أن ينبض بكلمات الحمد والشكر لله على نعمائه، ويصطحب صاحب البشرى إلى حيث التف حوله الناس، مرددين همهمات تجلّى بعدها للفارس شأن الرجل.

فتراه ترجّل يراقب ذاك الذي اكتسى برداء ملأته الرقع، ذاك الذي دحرت جيوشه جند فارس وأذاقت الروم الويلات.

فلقد أدرك الفارس لوهلة أنه في المكان الذي قلب موازين الدنيا وغيّر نواميس الكون،

إنه في البلاط.. في بلاط الخليفة.

الخليفة الذي انطلق بذهنه إلى بلاد الشام، ولقد أدرك أنه قد حان موعدها.

فقد حان موعد الاستفادة الكبرى من ياقوصة اليرموك.

ولقد تذكر تلك التي تحيا فريدة في أحلامه الوردية.

متوّجة على عرشها، تنتظر أن تستخلصها جيوشه مما ألمّ بها من ألم.

رقيقة ساحرة هي!

جد مثيرة وهي ترفل في ثوبها الوردي.. ذاك الذي يرفرف مع نسمات الهواء.

تداعب أشعة الشمس فتتوارى تلك الأخيرة خجلاً وحياء.

فاتنة هي؟

قطعًا فاتنة، وإلا لما شهرت من أجلها سيوف ولا دارت رحى الحروب والمعارك وسالت الدماء، بل واهتزت العروش وسقطت الممالك.

شابة وإن امتد عمرها لسنين طوال.

حمامة مقدسة ترفرف باسم السلام وتنشده على أرض قاسية.. جد قاسية.

تلك الشامخة التي تحتل إحدى أجمل بقاع الدنيا، مزدانة ساحرة تطل على البلاد والعباد.

تحتمي بجبال راسخات، بل تنبض كقلب فتى بين البلدان.

تكتسي بحكمة السنين وتستمع لآهات المكلومين، قبل أن تبصر بأعين حزينة شمسًا تشرق على جبال الزيتون كل صباح.

نعم إنها هي.

القدس.. شجرة الزيتون المقدسة وأسطورة السنين

*****

-ولكني كنت سأقتله بالفعل!

رددها عقله بأسى وكأن كل ما أحاط به يتوقف على تلك النقطة.

مع الإضاءة الخافتة التي لفّت الغرفة، ومع وقع خطواته القلقة الرتيبة التي جاب بها المكان ذهابًا وإيابًا، بدا الأرطبون في هذه اللحظة تحديدًا مخيفًا بحق.

عينان أضناهما السهر، ومع ذلك ما زالتا محتفظتين بنفس البريق.

بريق غامض محيّر يلح بإصرار أن ذكاء هذا الرجل ليس عاديًا بحال!

لكنه الآن قد صار يؤمن يقينًا بأن هناك قوى تعانده!

قوى خفية هي؟ ربما!

لا يعرف تحديدًا ماهيتها، لكن ما كان واثقًا منه أنه يكره ذلك العربي كراهة الموت ذاته.

مع كل ما ألمّ بجيشه، بل وبهرقل نفسه، من إخفاقات على يد هؤلاء العرب، إلا أنه اختص ذلك العربي بكراهية خاصة!

عمرو.. ذلك الداهية الذي يحاصر الآن إيليا بإصرار وعناد، وقد أوشك أن يفتحها.

-اللعنة! لِم لا تعترف أيها الأحمق أنه خدعك ومارس عليك ألاعيبه، التي تقبلتها كغر ساذج.

- روما كلها تتندر الآن بذلك الأحمق الذي روّضه أعرابي قادم من جزيرة العرب.

كان يخاطب نفسه، بينما ضرب بكفه اليمنى على باطن كفه اليسرى في حنق.

لا يعلم حتى الآن كيف خدعه عمرو، فلقد كان قد أرسل له من يقتله، إذ علم يقينًا جرَّاء محادثته أن محادثه هو العقل المدبر لجيش العرب.

لربما شكّ لوهلة أنه عمرو بن العاص نفسه، لكنه استبعد هذا الهاجس تمامًا حينما رأى العربي قادمًا من جديد بنظرة واثقة وابتسامة -يلح أثرها على ذهن الأرطبون بكرة وعشيًا- ارتسمت على وجه عمرو، بدأ حديثه مستأذنًا:

-قد سمعت مني وسمعت منك، فأما ما قلته فقد وقع مني موقعًا، وأنا واحد من عشرة بعثَنَا عمر بن الخطاب مع هذا الوالي لنكاشفه ويشهدنا أموره، فأرجع فآتيك بهم الآن، فإن رأوا الذي عرضت مثل الذي أرى، فقد رآه أهل العسكر والأمير، وإن لم يروه رددتهم إلى مأمنهم وكنت على رأس أمرك.

-هل كنت بعقلي حقًا حين أرسلت أن أبطلوا ما أمرت. (ارتسمت ابتسامة خاوية على محيا الأرطبون وهو يتذكر) لقد أمرتهم ألا يقتلوا عمرو.. أنا قلت لهم بلساني ألا تقتلوا عمرو.. دعوه يمضي في سلام كي يتم حصاره ويتسلم إيليا. ألا أيها المخدوع الغرير صبّت عليك اللعنات.. انطلت

عليك حقًا ابتسامة عمرو المعسولة وطمعت أن يسلموك تسعة آخرين لتذبحهم ذبح الشياه؟!

كان يؤنب نفسه بعنف، وقد واصل كفّه مهمته بدأب، في حين توقف عقله عن التفكير سوى بعمرو.. ولقد بدا لوهلة خاويًا.. تمامًا.

*****

-ولكنّ المسلمين بخير!

هذا ما يهمه ويعنيه الآن!

فليعالج عمرو حربه الكؤود الصدوم كيف شاء، لكن فصل الخطاب أن المسلمين بخير!

لقد امتنع بيت المقدس وصَعُب فتحه إذن، ولقد كان يتوقع ذلك حتى ارتآه عين اليقين.

منذ سيّر أبا عبيدة وخالد عقب اليرموك تجاه حمص، ومع ظفرهم وغنمهم للمدن واحدة تلو الأخرى علم ذلك.

من حمص إلى حلب فأنطاكية، وهم الآن يذيقون جيوش هرقل الويلات شمال الشام.

هرقل ذلك الذي فر منذ زمن صوب القسطنطينية، بعد أن ألقى نظرته الأخيرة على بلاد الشام!

مـع كل ذلـك أدرك عمـر أن بيـت المقـدس سيسـتعصى عـلى الفتـح في الأخـير -ليـس أبـدًا كسـائر البلـدان- ربمـا لمثـل هـذا أبى أن يرميـه برهـق سـيف خالـد، وآثـر أن يرمـي أرطبـون الـروم بأرطبـون العـرب.

ولشـد مـا كانـت فرحتـه حينمـا علـم بمـا كاده عمـرو للأرطبـون، فجعلـه أضحوكـة وصلـت إلى مسـامع هرقـل وأوهنـت جيشـه هنـاك في أرض فلسـطين!

بـل ونمَـت ابتسـامته العذبـة عـن فخـر متزايـد بأرطبونـه وهـو يـردد:

- خدعه عمرو.. لله عمرو!

لقـد ألقـى الإسـلام بتبعتـه الجسـيمة عـلى كتفـي عمـر اليـوم، وإنـه لسـائله أمـام اللـه غـدًا كيـف أدّيـت حـق نـشر هـذا الديـن يـا عمـر؟

دين ارتضاه الله للبشر، أفتراك قد قمت بحقه؟

أويسائلك هذا الدين غدًا يا عمر؟!

إلا أن هـذا السـؤال سـيجيء مقترنًـا بسـؤال آخـر سيسـأله لـك اللـه حتمًـا:

- ألقيت بالمسلمين الهلكة يا عمر؟

-أيـا ليـت بيـني وبـين فـارس والـروم سـدًّا مـن نـار، فـلا أصـل إليهـم ولا يصلـون إليّ.

لكـن هنـاك في تلـك الربـوع مـن سـيتلقف رسـالة السـماء يومًـا،

حـال بينـه وبينهـا أولئـك الجنـد.

إلا أن بيننا وبين ذلك أنهارًا من دم أبوا إلا إراقتها.

وأبـوا إلا أن يؤرقـوا الخليفـة، فـلا يهنـأ بنـوم ولا يهـدأ عقلـه، فـلا يـزال يضـج بالفكـر.

-هل أديت حق الله يا عمر؟

انتـصر المسـلمون في اليرمـوك.. ذللـوا الجيـوش وفتحـوا المدن.. عمـرو يجابـه الآن داهيـة الـروم هنـاك في أرض فلسـطين.. قطـع جيـش معاويـة مـدد قيسـارية عـن بيـت المقـدس، فاشـتد الحصـار بـلا مـدد.. حصـار غـزة كذلـك قطـع الإمـداد.. عمـرو نفسـه استكشـف المدينـة الحصينـة.. هـل تـراه جـازف بـأن يسـقط نفسـه بـين يـدي الأرطبـون بـلا ثمـن؟!

ثم كانت موقعة أجنادين.. يومًا من أيام الله.

وبرغـم هـذا يظـل الأرطبـون حصيفًـا.. نِـدًّا صلـدًا واختبـارًا عسـيرًا.. جـد عسـير.

متحصنًـا ببيـت المقـدس هـو، وكأنمـا زيّـن لـه أن يظـل فيـه أبـدًا، وبـدت السـبل مقفلـة حـتى بـدا في الأفـق هـذا العـرض.

-تـرى بـم سيشـير أهـل الشـورى غـدًا.. تـرى هـل سـيكون سـؤال اللـه عسـيرًا.. بـم سـتجيب حقًـا؟ هـل ألقيـت بالمسـلمين الهلكـة يـا عمـر؟ هـل أديـت حـق اللـه يـا عمـر؟

*****

لنعترف أنه طفل وإن بدا غير ذلك!

نعم لا يراه صالحًا إلا ليكون طفلاً.

طفل عنيد يأبى أن يفقد دُميته وإن أفسدها بيده.

طفل يأبى أن يخسر حتى لا يتشفى فيه خصمه ولا يوسعه رفاقه ذمًّا.

ربما لهذا يرى عمرو نظرات الكراهية في عينيه، ولمثل هذا يقاتل باستماتة.

لكنه مع هذا طفل صعب المراس، يأبى الهزيمة أبدًا، وأوصل المسلمين لمثل هذا الحصار، وبدا أنه لا بُدَّ من حضور الخليفة ليتسلم مفاتيح تلك المدينة عصيّة الحصون، ومن يدري ربما بعد كل هذا لا يتسلمها!

لقد حقق عمرو تقدمًا وسبقًا في جوهر الصراع الدائر حول أبواب بيت المقدس.

ربما تجلّى التفوق واقعًا مع خدعته الشهيرة، التي سهلت له أن يكشف أسرارًا ودروبًا ما كانت عيونه التي أرسلها لترصدها.

وربما لهذا ولأخبار تقدم جيش أبي عبيدة وخالد هناك في الشمال انتصر المسلمون في أجنادين.

نصر لا يقل أبدًا عن نصر اليرموك، ولقد أثخن فيه القتال وإن أبت الحرب أن تضع أوزارها.

فمع نصر مؤزر لاح للمسلمين في الأفق سارع الأرطبون

بالانسحاب من جديد، ليلتحق بحصنه المحبب ويواصل لعبته التي أحبها.

وإن بدا الموقف معقّدًا إلا أن إشراقة تجلت في نفس ابن العاص، منتظرًا رد عمر على رسالته إليه!

ربما أوجز عمرو في رسالته، وإن تمنى عمر أن يوجز في حربه!

-إني أعالج حربًا كؤودًا صدومًا، وبلادًا ادُّخِرَت لك، فما رأيك؟

وها هو ينتظر.. وما للانتظار من بد.

*****

في غرفة متواضعة ملأتها نقوش مسيحية موغلة في العراقة، كان بالأرطبون إيليا يخاطب صديقه القس:

-أنا الارطبون إيليا الآن.

حاسمًا نطقها البطريق صفرونيوس، وقد أحاطت به هالة من الصرامة والحسم، ندر أن يراه عليها ذلك القس!

كان يعلم أن الوضع عصيب، وأن عرض الأرطبون للصلح ما هو إلا محاولة مستميتة لتأجيل الصدام القادم، إذ ربما أرسل هرقل مددًا ما.

إلا أن صفرونيوس نفسه راقت له الفكرة وشجع البطريق

عليهـا، وقـد عـز عليـه أن تسـلم المدينـة المقدسـة كغيرهـا، بعـد حـرب ضروس تـراق فيهـا الدمـاء.

ربمـا لا يكـن لهـؤلاء القادمـين مـن شـبه جزيـرة العـرب ودًّا مـن أي نـوع، إلا أنهـم -وفـق مـا وصلـه- لـن يسـوقوهم قـصرًا إلى دينهـم، كمـا فعـل هرقـل مـن تبديـل مذاهبهـم.

لـن يفتنوهـم عـن دينهـم بحـد السـيف كمـا أراد هـؤلاء الروم، وهـذا كافٍ إلى حـد بعيـد، فلقـد سـئم مسـيحيو الـشرق تسـلُّط هـؤلاء الـروم وربطهـم لتوسـعاتهم المريبـة بديـن المسـيح.

-أرطبون هذا وغد كبير، لتعلم ذلك جيدًا.

قالها بتردد، إلا أنه تابع:

- كل ما يريده أن يثأر من ذاك القائد العربي عمرو.

ازداد توتره أكثر فأكثر:

- أتعلـم أيهـا العزيـز كيرلـس؟! أتعلـم أن قائدهـم خالـد ذاك الـذي يزلـزل الحصـون فـلا يصـده شيء، قـد اسـتأذن أميرهـم عمـر في أن يفتـح بيـت المقـدس عنـوة، فـأبى!

أطلق بصره بعيدًا متابعًا:

- هـؤلاء قـوم يعظِّمـون بيـت المقـدس يـا كيرلـس ليسـوا كهـؤلاء الـروم المذبذبـين.. لـئن اسـتطعت أن أعقـد اتفاقًـا جيـدًا مـع عمـر هـذا لتكـون بـشرى الخـير عـلى مسـيحي إيليـا.. لقـد سـئمنا يـا كيرلـس.. صدقـني.. لقـد أرهقنـا الوضـع القائـم هـذا.

استشعر كيرلس التوتر على محيا البطريق، فقال بإشفاق:

- ولكن...

قاطعه البطريق محتجًا:

- نعـم.. نعـم.. أعلـم مـا سـتقول.. هـذا الأرطبـون.. لشـد مـا أبغـض تملُّقـه ومكـره.. مـا شـأننا نحـن يـا كيرلـس بهـذه المهاتـرات؟ إنهـم يقاتلـون لمجـد وسـلطان ما لنـا فيه مـن شيء.. إن نريـد إلا أن نعبـد الـرب في سـلام.. وهـؤلاء العـرب سـيكفلون لنـا ذلـك.. هـذا مـا يعنيـني ومـا يعـني أهـل إيليـا مـن المسـيحيين المخلصـين.. سـلام يحملـه عمـر.. فليذهـب أرطبونهـم هـذا إلى الجحيـم!

أومأ القس كيرلس بتفهم، وقال بهدوء:

- مـا تعنيـه واقعـي إلى حـد بعيـد سـيدي البطريـق.. النـاس هنـا يحبونـك وسيسـتجيبون لأمـرك.. مـا يخـص الأرطبـون كذلـك ليـس عسـيرًا.. هـو مـن طلـب الصلـح، وهـذا الأمـير القـادم يبدو أنـه لا يعـرف لعـب الصبيـة الـذي يمارسـه الأرطبـون.. لربمـا أمـر خالـد أن يقتحـم المدينـة، وحينهـا لـن تنفعنـا القسـطنطينية كلهـا، ويعلـم اللـه وحـده كيـف سـتكون الحـال. الأزمـة الحقـة أن هـذا الأرطبـون يسـتمد تعجرفـه مـن القيـصر ذاتـه!

- وما شأني أنا وقيصر؟!

غاضبًا قال صفرونيوس قبل أن يتابع:

- أوَليـس هـو مـن جـرّ الويـل إلى كل المسـيحيين المخلصـين؟! أوَليـس هـو مـن اسـتحدث بـأن حـاول فـرض مذهبـه بالقـوة؟! هـو مـن بـدأ كل هـذه الويـلات الـتي نعيشـها الآن، ولـن أسـمح

بـأن يكـون سـببًا في إغـراق المدينـة المقدسـة في بحـر مـن دم.

هـذا الأمـير العـربي قـادم يبغـى سـلامًا الآن، فمـا أدراني بحالـه غـدًا! لـئن وجـدت صيغـة جيـدة للصلـح سـيكون خـيرًا لـكل المخلصـين ممـن اضطهـدوا في دينهـم عـلى يـد قيـصر.. فليذهـب القيـصر وأرطبونـه إلى ويـلات الجحيـم! ولتبـق إيليـا لـتردد التراتيـل المقدسـة في سـلام.

وقـد كان البطريـق صادقًـا إلى حـد بعيـد.. فالخليفـة الـذي ارتحـل إلى القـدس لـم يكـن يبغـى سـواه.. السـلام الـذي يرفـرف بجناحيـه هنـاك.. فـوق مدينـة الزيتـون المقدسـة.

مدينة اسمها القدس.

*****

اشـتد الحـر وقـد تبـدت رأس الفـاروق بـلا قلنسـوة ولا عمامـة تلفحهـا الشـمس.

بقميصـه الـذي تخـرّق وملأتـه الرُّقـع يمـضي عـلى بعـير، يتعاقبـه هـو وغلامـه أسـلم، وقـد أزف الوصـول.

- قد وصلنا مؤتة يا أمير المؤمنين.

تأمـل الموقـع جيـدًا وقـد تداعـت إليـه ذكـرى ذلـك اليـوم، وكلمـات النـبي -صـلى اللـه عليـه وسـلم- وكأنمـا تعـاد عـلى أذنيـه مـن جديـد: قـد أخـذ الرايـة سـيف مـن سـيوف اللـه.

- خالد! كان رأي علي مناسبًا لأقصى حد.

حقًّا قد اجتمعت عليه الشورى في الأخير، ولكنه لا ينكر أبدًا أن رأي عليّ بالخروج لإتمام الصلح صادف رغبته.

- أما أنا فأرى أن تذهب يا أمير المؤمنين، فقد أصاب المسلمين جهد عظيم من البرد والقتال وطول المقام، فإذا أنت قدمت عليهم كان لك وللمسلمين الأمن والعافية والصلاح والفتح إن شاء الله، ولست بآمنٍ إن لم تفعل أن ييأسوا منك ومن الصلح، ويمسكوا حصنهم، ويأتيهم المدد من بلادهم وطاغيتهم، ولا سيَّما أن بيت المقدس معظّم عندهم وإليه يحجون؛ لك الله يا أبا الحسن!

ها هو عمر سيطالع بعينيه جيوش الإسلام.

جندًا دحر الفرس ودك حصون الروم.

جيش ظفر بالنصر وقد اقتربت اليوم البشارة.. جد اقتربت.. اقتربت مثلما لم تكن يومًا!

ولكن أنّى كان للخليفة أن يتخيل -ولو لوهلة- أن تقترب البشارة وأمير المؤمنين اليوم عمر.

واليوم لقاء أمراء الجند بالجابية.. ومع مثل هؤلاء يطيب اللقاء.

عمرو وأبو عبيدة ويزيد وخالد.

الله الله يا خالد! لله در خالد! قد عجزت النساء أن يلدن مثله .

فتوحـات وانتصـارات، واسـم دوّخ جيـوش الـروم اليـوم كمـا دوّخ الفـرس بالأمـس.

واليـوم يتجـدد اللقـاء.. وقـد عـادت الأعـين لتلتقـي مـن جديد، في حـوار أحبتـه وألفته.

حـوار يحمـل بـين طيّاتـه مـا لا تحتملـه المعـاني ولا تسـعه الألفـاظ.

حوار بين عمر وخالد.

- أولـم تـزل السـتائر عـن البصائـر يـا سـيف اللـه؟! بـل لقـد خرجـت شـعلة النـور لديـك أيضًـا فارقـت نـوم كـسرى وزلزلـت عـرش قيـصر، لقـد سـلّ رسـول اللـه سـيف اللـه ولـم يعـد لأحـد أن يغمـده.

كان اللقاء عميقًا فريدًا جللاً!

رفـاق الصبـا، وقد أبت الأقدار إلا أن يلتقيا وإن اختلفا يومًا!

وإن تعـددت مـرات اللقـاء، إلا أن خالـد يـأبى أن ينـسى نظـرة عمـر لـه يـوم قـدم المدينـة مسـلمًا.. بلهفـة وفـرح حقيقيـين رمقـه عمـر يومهـا.

بـل لـن ينـسى نظـرات عمـر في مكـة، وكأنمـا يسـائله: مـا يمنعك عـن اللـه يـا خالد؟!

وقـد ظلـت تلكـم النظـرات لغـزًا أبى أن يحـل إلا يـوم أن أتى خالـد المدينـة مسـلمًا.

ولقد التقت أعينهما يومها كذلك ودارت أعذب الخواطر.

وكـذا اليـوم يعزفـان معًـا مقطوعـة مجـد فريـد قـد صـار للإسـلام، ومـا زالـت ترددهـا جنـود فـارس وروما فرضًـا عيانًـا غـداة كل معركـة وصبـاح كل هزيمـة!

نطـق عمـر والابتسـامة لا تفـارق ثغـره، والـود ينبـض عـلى طـرف لسـانه، والرقـة تشـق طريقهـا إليـه:

- ما زلت واجدًا عليّ يا خالد؟

وأجاب خالد بقلب طفل لم يعرف الحقد أو الكره يومًا:

- ذهب جلّه يا أمير المؤمنين وبقى رسيسه!

وقد قنع أمير المؤمنين بقوله ورضي به أيّما رضا.

*****

- لا لا يكون..لا يساكنّا اليهود فيها أبدًا.

قالهـا صفرونيـوس بـإصرار، وكأنمـا هـي فصـل الخطـاب لديـه، وقـد طالـع وجـوه الجالسـين، عمـر وأبي عبيـدة وخالـد وعمـرو ويزيـد ومعاويـة وعبـد الرحمـن بـن عـوف.

كان العهـد قـد اكتمـل ورضي بـكل شروط المسـلمين، إلا أن يسـاكنهم في بيـت المقـدس يهـودي

أنّى ذلـك وقـد فعلـوا بالمسـيحيين الأفاعيـل يـوم أن غلبـت فـارس!

وما استقام الأمر حتى عاد هرقل لينتزع المدينة المقدسة، وقد راق له طلب المسيحيين بألا يساكنهم فيها اليهود، إذ كان في نشوة النصر، فأجاب لهم ما طلبوا.

- ولكنه بلد للأنبياء والرسل كيف أمنعهم عنه؟

بلهجة سلسلة لا ينقصها العزم، نطقها عمر.

- يا أمير المؤمنين، قد قبلنا جميع شروطكم، أما تلك فلا نقبلها بحال.. إنهم أهل غدر وخيانة ولا نثق فيما يكيدونه لنا، فتميلوا علينا أنهم كانوا يحرضون عليكم، فلما ظهر دينكم يريدون أن تنتقموا لهم منا.

وكأنما أثارت الكلمة عمر فقال بودّ:

- لا والله لا يكون، فاعلم أن الله تعالى يقول {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.

- هي في كتابكم؟!

- نعم.

- فلِم قولك هذا وأنت تعلم شأنهم؟!

- إن الله قد أمر بالعدل والإحسان؛ ليس من العدل أن نمنعهم عن أداء شعائرهم.

- فكيف نأمنهم إذن وقد ساكنونا فيها.

- سنضمن لكم إذن ألا يساكنوكم فيها على ألا يُمنعوا من

الزيارة والحج. إنا لا نخرجهم إذ أنهم يهود، إنما نخرجهم لما كان فيهم من الغدر وما كان هذا في زيارتهم أو حجهم، فاقبل مني، إنا نؤمن بالرسل جميعًا لا نفرق بين أحد منهم.

- قد قبلنا إذن يا أمير المؤمنين، فلتقرؤوا كتاب الصلح.

ظهر البِشْر على وجه الفاروق، فأشار لمعاوية قائلاً: اقرأ يا معاوية كتاب الصلح.

- بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين، أهل إيليا من الأمان.. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبانهم وسقمها وبريئها وسائر ملتها.. أنه لا تُسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا ينقص منها ولا من حيِّزها ولا من صليبهم ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكن بإيليا معهم أحد من اليهود.

هنا بدا البشر على محيا صفرونيس وكأنما لم يرد من الكتاب غيرها.

- وعلى أهل إيليا أن يُعطوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن. وعليهم أن يُخرِجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا أمنهم. ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بِيَعهم وصلبهم، فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم حتى يبلغوا أمنهم. فمن شاء منهم قعد

وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية. ومن شاء سار مع الروم. ومن شاء رجع إلى أهله، فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصد حصادهم.

وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين، إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية.

كتب وحضر سنة خمس عشرة هجرية.

شهد على ذلك: خالد بن الوليد، وعبد الرحمن بن عوف، وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان.

وقد كان هذا فصل الخطاب وقد استبشر عمر.

فاليوم صارت قِبلة المسلمين الأولى للمسلمين، يساكنهم فيها المسيحيون، إلا أنه لا مقام فيها لليهود ولا يساكنوا أهلها.. أبدًا.

إلا أن الخليفة قد شعر بغصّة في حلقه، وإن كان حقًّا لا يدرى لِم!

*****

بدت الساحة هادئة تسبح في عوالم سماوية ساحرة.. تتنسم السماء فيها فتُزهر أزهارًا وردية في قلوب صافية نقية.. وتعزف معزوفة سامية، فتهتز أشجار الزيتون طربًا وترقص حمامات محلقات بنشوة وفرحة.

إنها ساحة المسجد الأقصى، ومن بعيد يزينها مسجد قبة الصخرة، بقبته اللامعة تحت ضوء شمس خجولة تشرق في خضوع.

جموع من المصلين أشرقت وجوههم النضرة تردد أحلى أناشيد السلام.

وفجأة اهتزت الصورة ليتحول كل شيء إلى ركام، بدت أشجار الزيتون حزينة وتوقف الطير وبكت السماء، ومن بعيد تردد صوت صفرونيوس بحسم:

- لا والله لا يكون ذلك أبدًا، وصوت معاوية يقرأ بتؤدة:

- وألا يساكنهم فيها اليهود أبدًا!

هنا استيقظ عمر على صوت بلال ينادي بودّ، وقد تذكر الآن أن موعده اليوم مع الساحة المقدسة.. حيث المسجد.

*****

- ويحك يا كعب! ما زلت بقولك هذا لأمير المؤمنين إلا لتثنيه عن رأي عزم عليه.

قالها عبد الله بن سلام بضيق.

تلعثم كعب الأحبار لوهلة قبل أن يقول:

- ولِم أثنيه؟! قد طلب الشورى، وها أنا أشير عليه.. ما

زدت عـلى هـذا.

كان الخليفـة في لحظـة تفاعـل حقيقيـة مـع المـكان مـن حولـه، فـأراد أن ينهـي الحـوار الدائـر، إذ قـال:

- ولِـم لا تريدنـا أن نتخـذ هـذا الموضـع مسـجدًا يـا كعـب.. موضـع إليـه أسرى نبينـا ومنـه عـرج إلى السـماء وفيـه صـلى بالنبيـين إمامًـا.

قالهـا وقـد تملكتـه رهبـة خفيـة، إذ يجيـل بـصره في المـكان مـن حولـه.. لفّـه الضيـق وقـد رأى الإهمال باديًـا في كل موضع، وذهب ببـصره أقـصى الشـمال، حيـث الصخـرة الـتي علتهـا الكناسـة، فـزاده ذاك همًّـا.. كان الموضـع الـذي اختـاره عمـر مناسبًا بحـق، وقـد تبـدّى في أبهـى حللـه اليـوم لأول مـرة منـذ عـرج منـه النـبي -صـلى اللـه عليـه وسـلم- بعـد أن صـلى بالنبيـين إمامًـا.

قطـع كعـب تأمـلات عمـر بلهجـة مطاطـة لا يسـبر أغوارهـا إلا مـن كان مثـل عمـر:

- إني خشيت أن ينازعنا النصارى على هذا الموضع.

بلغ الضيق فى نفس عبد الله بن سلام مبلغه، فقال:

- بئـس الـرأي وبئسـت الشـورى.. أمِنْ دون كنائسـهم وصلبانهم لا يجـدون إلا مسـجدنا لينازعونا.

تبادلت نظرات عمر بينهما، وفي نفسه تصاعد سؤال حائر:

- لِـم هـذا الفـارق بينهمـا وهمـا أجـدر مـا يكونـا بالتماثـل، كلاهمـا يهـودي أسـلم، ولكـن شـتان، معـاذ اللـه يـا عمـر!

أوحسبت نفسك مطلعًا على النيات والقلوب؟!

انتاب ذاك الهاجس عمر فانتفضت روحه وعاد إلى الحوار بقوله:

- إنا قد أمنّا النصارى يا كعب، وكنسهم وصلبانهم ومقدساتهم في حمايتنا، ما أراهم ينازعوننا موضعًا أهملوه بعد أن هدم معبد للرومان الوثنيين كان قائمًا عليه، ليتك كنت معي إذ أزارني ذاك البطريق مقدساتهم بالأمس.

شعر كعب بغصّة في حلقه، إذ تذكر ما فعله به البطريق يوم العهد، ولكنه قال بحذر:

- إن لم ينازعنا النصارى نازعنا اليهود.

- اليهود!

نطقها عبد الله بن سلام وقد نظر إلى كعب نظرة ذات معنى.

ثارت ثائرة كعب، فقال بغضب بادٍ:

- أراك تريد أن تكرر مقولة ذاك البطريق يا ابن سلام.. قلها يا ابن سلام.

ظهر الغضب على محيا عمر وهو يقول بحزم:

- حسبك هذا القول يا كعب! لا تعود لمثله.

تابع كعب بود:

- ولكنك لم ترد مقولته يا أمير المؤمنين، إذ قال أخرجوا

هـذا اليهـودي؛ مـا كان لنـا أن نكتـب العهـد وهـو بيننـا!

قال عمر بودٍّ:

- قـسٌّ مـا زال في نفسـه شيء مـن يهـود غـدروا بقومـه يـا كعب.. مـالأوا الفـرس لينكلـوا بقومـه.. مـا زاد الأمـر عـلى ذاك يـا كعب.

- وهـل إخـراج اليهـود مـن بيـت المقـدس لمثـل هـذا أيضًـا؟ بـدا الغضـب المكتـوم عـلى محيـا كعـب وهـو ينطقهـا.

قال ابن سلام بمكر:

- وما شأنك وبني يهود.. أوَلست أسلمت فحسن إسلامك؟!

وقال عمر بحزم:

- ويحـك يـا كعـب! هـل كان اليهـود فيهـا فأخرجناهـم؟ مـا منعـوا مـن مسـاكنة أهـل بيـت المقـدس إلا بمـا غـدروا.. وقـد منحناهـم حـق الزيـارة والحـج وهـو مـا لـم يكـن لهـم قبـلاً. ثـم هـا أنـت ذا تعلـم مـا ورد في الصلـح، فمـا شـأن قولـك بـأن ينازعنـا اليهـود؟

حـار كعـب جوابًـا فآثـر الصمـت، إذ خـشي أن يـزداد لغطـه، فتابـع عمـر بحسـم:

- ثـم إن اليهـود شـأنهم كشـأن النصـارى في مثـل هـذا، بـل أدنى.. فلقـد أهملـوا أيضًـا هـذه الأرض منـذ هـدم معبـد الرومـان، أوَلا تـرى مـا اجتمـع بهـا مـن كناسـة أهـل المدينـة، مـا لـم يقـم بـه قائـم منـذ أمـد؟!

عجـز كعـب عـن النطـق تمامًـا وهـو يحيـل بـصره إلى الأتربـة

الـتي غطّـت المـكان، وإلى الكناسـة المتراكمـة، وقـد تابـع عمـر:

- ألسـنا أوْلى مـن كل هـؤلاء بـأرض صـلى فيهـا نبينـا إمامًـا بـكل النبيـين، بـل كرمـه اللـه فـأسرى إليهـا وعـرج منهـا؟!

انقطـع معـاذ بـن جبـل عـن صمتـه وعـن تأملـه في المـكان، فقـال:

- نِعـم رأي رأيـت يـا أمـير المؤمنـين، ومـا ذكـر اللـه هـذه البقعـة بالمسـجد الأقـصى إلا لتشريفـه لهـا بـأن تكـون مسـجدًا، فهلـم وامـض لأمـرك ونحـن معـك.

استبشر عمر بقول معاذ، فقال:

- فأين نجعل القبلة؟

خرج كعب عن وجله، فقال بحماس:

- لنجعلها خلف الصخرة يا أمير المؤمنين.

حاسمًا قال ابن سلام:

- إن أمرنـا بـأن إلى الكعبـة قبلتنـا ومـا إلى الصخـرة نصـلي كقـوم موسى!

لم ينقطع حماس كعب:

- فلتكن خلف الصخرة تجاه القبلة فنجمع الحسنيين.

رأى عبد الله بن سلام أن قول كعب قد سرّ عمر:

- إن جعلناهـا إلى الصخـرة أخرجنـا محـراب داود وسـليمان عـن المسـجد يـا أمـير المؤمنـين، فهـل تريـد ذلـك حقًـا؟!

أسقط لدى كعب، فسارع يدرأ التهمة:

- إن أردت إلا خيرًا وما انتبهت إلى مثل هذا.

أنهى عمر الأمر برمته، إذ قاطع كعب:

- فلنباشر إماطة الأذى عن الصخرة.. بئس قوم دنّسوا مثل هذا الموضع المبارك!

همّ كعب بالكلام، فسارع عمر حازمًا:

- أرى أن قولك الذي قلت كافٍ يا كعب.

ثم نظر إليه نظرة اخترقت وجدانه ونفذت إلى روحه، فكأنما يرى ما دار بخلده:

- ولا تخلع نعليك ثانية فإني رأيتك.

همّ كعب بالرد، إلا أن عمر تابع بحسم:

- أراك قد ضاهيت فيها اليهودية.. وأنهى قوله بما لم يعد سبيل للرد.. أبدًا.

*****

- مصر يا أمير المؤمنين.. إنها مصر!

قالها عمرو بن العاص مُلحًّا.

فأجاب عمر بابتسامة عذبة:

- ألا زلت مُصِرًّا يا ابن العاص تذكر لي مِصر أنّي لقيتني؟!

- وما الضير أن ندعم فتوح الشام بفتح مصر.

وكأنما ضاق ذرعًا نطق الخليفة:

- أقبل أن نفتح قيسارية نفتح مصر؟ فأنّى ذلك؟

وابتدأ عمرو يقول بإصرار ودهاء واضح:

- بل نقطع مدد البحر عن قيسارية بفتح مصر!

جاراه عمر بدهاء مماثل وابتسامة خفية تبدت على محياه:

- فكذا القسطنطينية تمد قيسارية من البحر! فلنفتحها إذن.

أدرك عمرو اللعبة، فقال:

- إن كان هذا رأيك فاستشر! ثم ارتسمت على محياه ابتسامة ماكرة: ولكن أرى أن مصر أقرب لنا من القسطنطينية وأيسر!

بضحكة صافية ارتسمت على محيا الفاروق:

- مصر.. ثم مصر.. ثم مصر.. هذا أنت يا ابن العاص.. سأنظر الأمر حين أصل المدينة يا عمرو.

بلهفة قال عمرو:

- وترسل إليّ بالجواب؟

بابتسامة بين الدهشة والسرور أجابه عمر:

- إن شاء الله يا عمرو.. سأنظر أمر مصر.

*****

ساحرة هي رغم كل شيء كعهدها.. إلا أن شاهدًا عدلاً إن دُعي لقال إن رونقها قد زال.. بل ومع ذاك قد حل محله كآبة اخترقت وجدانها فلم تتركها أبدًا كما كانت.. ولم تعدها هي نفسها مع ما مر بها من خطوب.

- لشد ما قسوت عليك يا رستم! فلقد كنت أعلمنا بويل ما جرّه علينا ذاك المملوك من خطوب.. واجهت الهلكة وبقينا نحن بالمدائن ننتظر ما أزف من نهاية على الأبواب.. أواه ملك فارس! خيول العرب قادمات لتدك المدائن.. إن لم يكن هذا اليوم، فغدًا قريب.

رستم الحبيب.. قرّة العين وأليف الروح.. شد ما اشتقت إلى همساتك العذبة ونظراتك الحانية.

ربما ألمح طيفًا من فطنتك من فيروز.. ولكن هيهات.. أين هو من شجاعتك وإقدامك؟! أين هو من نبل رستم فارس فرسان إيران!

فيروز.. لتصغ إليّ بنيّ كما لم تصغ من قبل.. لتلتقط كلماتي وكأنما هي زادك الأخير من الدنيا.. هؤلاء العرب الأجلاف قد قتلوا أباك.

لمحت الغضب يرتسم على ملامحه الفتيّة، فتابعت وقد اتقدت عيناها بلهيب غاضب ثائر:

- هؤلاء العرب.. قد منّا عليهم من قبل، ولكن هيهات لهؤلاء الصعاليك أن يذكروا الفضل.. قد قابلوا الحسنى بالإساءة.. وأي إساءة بُني الحبيب! إذ ذللوا ملكًا عظيمًا قد بلغ الآفاق.. إن لنا مجدًا عظيمًا ذرته رياح سعد.. مجدًا عظيمًا ما كان له أن يزول.. إن لنا مجدًا تليدًا قد داسته أقدام ملكهم عمر.. عمر.

راقبت تغير وجهه، فأدركت أنها بلغت مبتغاها.. عينان ضاقتا بالحنق وأُذنًا تستدعي مزيد الحقد وفؤاد قد انطوى على الكره، فواصلت بلهجة بين الشجن والغضب: هناك في المدينة يقيم ملك العرب.. يكيد المكائد ويدبّر الخطط ليزيل من الوجود اسم فارس.

- هناك في مدينة العرب يا فيروز.

ترقرق الدمع في عينيها وهي تتابع:

- لم يعد لي كثير مقام في هذه الحياة بُنيّ.

مدت يدها لتلف حول إصبعه خاتمًا ذهبيًا وهي تقول:

- هذا خاتم أبيك يا فيروز يوم قتله العرب.. يوم قتله جيش عمر يا فيروز.

بادلته نظرة ذات معنى، قائلة:

- لا تخلعه من يدك يا فيروز.. أبقِه دومًا؛ علّك تجلب

فخـار فـارس.

ظلـت تبـث سـمومها كمـا اعتـادت كل يـوم، وبـدا الآن أن فـيروز يسـتجيب تمامًـا.. وأنّ مـا دبّرتـه مـاضٍ بنجـاح.. أيّمـا نجـاح.

-٩-

اعتصر قلبه شعور أليم باليأس.. زحف الحنق على روحه يكبّلها.. اكتنفته الخواطر تلجمه إلجامًا.. في حين امتد أمامه اليم السرمدي.. ها هي زرقته الصافية تطرح الأسئلة في حين يعجز ذهنه المشتت أن يجيب، وبمَ يجيب وقلبه وروحه قد عجزا كذلك؟1

هل حقًا حدث ما حدث؟ تسائله أوراق الشجر.. فتراه قد عجز عن الإجابة.

هل حقا رحل من رحل؟ يناديه القمر فتراه قد حار جوابًا.

ظل كذلك لفترة لربما لم تطل، لكنها مرّت عليه دهورًا، ولقد تركت أثرها في روحه بما تعجز أن تتركه السنون، ولكن في النهاية قد استفاق كما يليق به.. كما يليق بشطا.. شطا بن الهاموك.

القيصر قد طلب.. ترى هل كان من الممكن أن يرد طلبه؟!

هل كان المقوقس قادرًا على رفض دومنتيانوس صديق القيصر؟

لقد أراد دومنتيانوس أورمانوسة وأراد القيصر ذلك وانتهى الأمر.

لربما كان يعرف المقوقس أن أورمانوسة لشطا.. ربما.

بـل كاذب هـو أن أنكـر.. مـصر كلهـا مـن أقصاهـا إلى أقصاهـا تعـرف ذلك.

لكن والحق يقال أورمانوسة لم تكن حازمة في الرفض.

بل لربما لم يكن دومنتيانوس أيضًا بهذا السوء.

ثـم زاد شـطا مـن تعقيد الأمـر بانضمامـه إلى العـرب الفاتحين.. في فعلـة قـد قلبـت الموازين.

شـطا أحمـق بالتأكيـد؛ أضـاع دينـه وأضـاع حبيبتـه، واليـوم هـو ذاهـب لقتـال أبيـه في تنيـس.

أي أحمق كنته ياشطا؟!

المقوقـس كان يعـرف ذلـك، كان يـردده، لكـن هـل كان يؤمـن بـه تمامًـا؟

*****

لقد استفاق شطا سريعًا.

مرارة حقيقية تلك التي تذوقها، ولكنه استفاق أخيرًا.

لقـد ضاعـت أورمانوسـة، ولكـن الاختيـار كان لهـا، ولقـد اختـارت ذلـك الرومـي صديـق القيـصر.

ترى هل تؤمل أن يكون لها مثل حب شطا؟!

شـطا يثـق أنهـا لـن تزعـم ذلـك أبـدًا، فهـي خـير مـن يعـرف كـم أحبهـا، وبمقارنـة بسـيطة يقيمهـا أي عاقـل يتوصـل مـن دون جهـد إلى أن أورمانوسـة قـد اختـارت الاختيـار الخطـأ، ومـن كل الوجـوه، لكـن أيًـا مـن هـؤلاء العقـلاء يجيب عـن السـؤال الأهم:

لِـم اختـارت الاختيـار الخطـأ؟ الحـق يقـال، أنـا نفـسي لا أعـرف، شـطا أيضًـا لا يعـرف، بـل أي مـن أهـل مـصر كذلـك لا يعـرف.

ولكن الأدهى هنا أن أورمانوسة أيضًا لا تعرف.

لقـد أراد شـطا في ظـل تخبّطـه أن يسـائلها، ولكـن بعدمـا اسـتفاق كان هـذا ضربًـا مـن العبـث ومـن الـدوران السرمـدي حـول العـدم.

لقـد أعلنـت اختيارهـا وانتهـى الأمـر؛ لـم يعـد الخطـأ قابـلاً للإصـلاح، ولقـد تجـاوزت أورمانوسـة نقطـة العـودة، وهـا هـو شـطا يتجاوزهـا كذلـك.. ولكـن شـتان.

أوه أيتها الطفلة الرقيقة! لشد ما كنت قاسية حقًا!

لقـد اختـارت ولـم تـبرر، ولقـد كانـت تعلـم يقينًـا مـدى الأسى الـذي سيسـببه هـذا الاختيـار لشـطا، كانـت تعلـم أن مقـدار صدمتـه بمقـدار حبـه، وجـدّ مـا كان عظيمًـا هـذا الحـب!

*****

هنـاك في تلـك الربـوع مـن أرض مـصر، نمـا الطفـلان معًـا، وعـلى امتـداد هـذا النهـر العظيـم التقيـا هنـاك في طيبـة، أقـصى صعيـد مـصر، أو في دميـاط حيـث يقيـم الهامـوك والـد شـطا، وفي قـصر المقوقـس حيـث تقيـم أورمانوسـة ابنـة أخـت المقوقـس.

ابنـا الخالـة ألان وزوجـا المسـتقبل بعـين الخيـال كمـا رأى الجميـع، ولكـن آه وألـف آه مـن الأقـدار! فمنـذ مـتى كانـت الحياة بهـذه السـهولة؟!

هنـاك في قـصر المقوقـس وأمـام زرقـة الميـاه وتحـت ظـلال الشـجر، جلسـا وقـد تبادلـت عيناهمـا أصـدق معـاني الحـب وأخلصـه مـن دون أن تغـادر الكلمـات الشـفاه.

- أوه أورمانوسة!

أيـا طيفًـا نقيًـا يجتـاح الـدروب ليؤثـر الألبـاب بصفائـه، أيـا قطـرات نـدى جـادت بهـا السـماء في صبـاح جميـل.

أيـا مـن أثـرت غـيرة فينـوس وأحنقـت ديانـا فتـوارت خجـلاً في الأفق.

أيـا مـن أحببتهـا يـوم ولـدت وقبـل أن أولـد وسـأظل أحبهـا بعـد أن أمـوت.

أضيئي ظلام ليلي بإشراقة ابتسامتك الصافية.

أيا نجمة الصباح المتألقة أيا فينوس الجميلة.

أيا من هي ماضيّ وحاضري وقبلتي ومعادي.

أيا من تعزفين لحنًا شهيًا وتنسجين بيديك الرقيقة خيوط عمري وقادم أيامي.

أيا أهازيج الصبا.. أغاريد الطفولة.. ولوعة الحب.. أيا قمر المساء.

لقد استيقظ شطا ذات صباح، ليدرك أن أورمانوسة لم تعد له، ولشد ما أدهشه أن هذا الألم لم يعد يجثم على صدره، لم يعد يؤرقه ويصيبه بالاختناق، ولكن لا يزال شعور بالمرارة يلازمه، ليس بسبب أورمانوسة فهذا -ويالعجب!- لم يعد يعنيه، وإنما بسبب ما أضاعه من عمره يطارد وهمًا ويبحث عن سراب. لكن -وما أغرب القلب- صار الأمر وخلال أيام ثلاثة ماضيًا.

هو نفسه لم يتوقع أن ينتهي الأمر بهذه السهولة، حتى لقد شك أنه لم يحب أورمانوسة كما يجب، ولكن سرعان ما زال هذا الخاطر عنه.

فلقد أحبها حبًا ملأ عليه حياته، ولقد احتلت جزءًا لا ينكر من روحه، إن لم تكن روحه كاملة، حتى صار من يقول بأن شطا لم يحب أورمانوسة، وكأنما يجزم بأن تلك البسيطة لم تشهد شيئًا اسمه حب منذ أن وجد على الأرض بشر.

كل هذا الحب في لحظة -ويا عجبي!- اندثر وصار وهمًا.

فجأة زالت تلك الهالة القدسية التي أحاطت أبدًا بأورمانوسة.

زالت وكأنما وجدت فقط لأن شطا يحبها.. يحبها هي من

بين نساء الأرض جميعًا، واصطفاها هي بهذا، فما إن فقدت تلك المزية حتى انضمت إلى جحافل الفانين.

زالت حينما أدرك شطا بعقله -وبعقله فقط- أن أورمانوسة لم تعد تلك الجديرة بحبه، وبأنها تنازلت وبمحض إرادتها عن هذا الشرف، ووضح جليًا أن ما كسرته أورمانوسة لم يعد قابلاً للإصلاح.. أبدًا.

زالت تلك الهالة ببساطة، لأن شطا -ذلك الفتى المصري الذي يصرح وجهه الوسيم بمصرية لا جدال فيها، ذلك الذي تلتمع عيناه البنيتان ذكاء لتشعّ سحرًا وبريقًا، ذلك الفتى الذي خطا للتو عِقده الثالث، ولقد كان بالفعل محل ثقة والده، ولشد ما ساند خاله المقوقس في حكم مصر، ذلك الفتى الذي ذاع صيته حتى بلغ روما ووصل إلى قصر القيصر نفسه، ذلك الفتى ببساطة يملك قوة- بعيدًا عن قدرات الجسد يملك قوة لم يتوقعها أحد.

قوة داخلية لم يعهدها البشر، ما عدا في هؤلاء العرب الذين صارت خطواتهم مسموعة، حقيقة لا مجازًا، بالقرب من تلك التي يخفق لها قلب شطا الآن، كما ظل يخفق لها طوال عمره.

فالآن قد وضح جليًا للجميع أن العرب هنا.. في مصر.

*****

- كما أنكرت عليّ حب أورمانوسة من قبل، تنكر عليّ الآن معونتي للمسلمين. هكذا أنت دائمًا يا فترون.. أوه حقًا من لم يعرف الحب لا يعرف سر الحياة!

ألقى شطا بعبارته كحمم بركان على مسمع فترون، الذي هز كتفيه لا باليًا وهو يقول بسخرية مقيتة:

- ولقد اتضح صحة قولي، ها هي أورمانوسة ستزف بعد شهور إلى صديق القيصر.

ضايقت الطريقة شطا وهو يحادث نفسه:

- ها هي حماقتك أورمانوسة جعلت فترون فارغ العقل والقلب يحسن الجدال. ولكنه تابع ببساطة:

- لكنك لم تكن محقًا حينها، لقد كنت أحب أورمانوسة وقتها حبًا يكاد من وضوحه أن يكون مرئيًا مسموعًا (تابع بضيق) أما الآن فلا.

- هؤلاء غزاة يريدون مصر، أوَلم تفهم بعد؟! (ألقاها فترون محتجًا).

- أوَلم تفهم أنت أنهم يرددون قيم الحق والعدل ويترنمون بمبادئ المسيح.

قاطعه فترون ثائرًا:

- لتصمت أيها الواهم المخدوع؛ المسيح منكم براء.

انفجر شطا غاضبًا:

- انزع عنك مسوح الرهبان أيها الواهن، فلن تغني عنك

شـيئًا.. أتظنـني أحـد الواهمـين الذيـن يخدعهـم قولـك دون أن يدركـوا حقيقتـك؟! افتـح عينيـك أيهـا الفـاني لتتأمـل ركاب الفاتحـين، ولكـن.. ويـا أسـفاه! هيهـات أن تـرى، فمـن عجـزت عينـاه أن تـرى الحـب، أولى بـه ألا يـرى الحـق.

حـوّل شـطا عينيـه عـن محادثـه ووّلى وجهـه شـطر النيـل، تأمل النبـت عـلى ضفافـه والأزهـار الـتي تعالـت منصّتـة، هنـا سـما شـطا بروحـه لـيردد بنـداء ردده الكـون، فألجـم فـترون حائـرًا.

شـطا الـذي تحـوّل إلى جـزء مـن معزوفـة قدسـية، تعالـت في الأرجـاء ليصـدح بهـا الطـير ويغـرد بهـا الزهـر.

- أوتكفـر بالحـب أيهـا الفـاني؟! أوتجحـد بحقيقـة ارتضاهـا لنـا الـرب؟!

- اخفِض صوتك، فما عاد صوت يعلو بعدما نطق الحق.

- أوتنكر سر الوجود وطاقة الكون الدفينة؟!

- اهبـط مـن برجـك، فأنـت أخـسّ مـن أن تتحـدث باسـم الـرب، لا تظـن أن تبتُّلاتـك سـتمنحك حقًـا أو امتيـازًا ليـس لـك؛ تيقـظ أيهـا الواهـن، لا تأمـل أن يصـدق أحـد قولـك بـأن الـروم يحملـون لنـا خـيرًا، تأمـل أيهـا الفـاني، فمـن هنـا تشرق الشـمس.. مـن هـذه الأرض ينبـت الخـير ويحمـل إلى الكـون. واهـم حقًـا مـن ظـن أن يحمـل إلينـا خـيرًا.

- والمسلمون؟

- إنمـا جـاؤوا لإعـلاء العـدل وترميـم مـا فسـد، لـو ظنـوا -ومـا لهـم أن يظنـوا- أنهـم مثـل الـروم فقـد انتهـى أمرهـم، فهـذه

الأرض مهـد الكـون.. هنـا يولـد عبـدة الـرب. كـن واثقًـا أيهـا الفـاني؛ لـن يحمـل الـروم النـور إلى حيـث تـشرق الشـمس.

*****

تسللت نسائم الفجر الوليد إلى جيش المسلمين المرابط في أرض مصر.

فجر جديد بِكر بدَّد ظلمة الليل البهيم، وبشّر بنصر يراه المسلمون قريبًا.

وكيف لا، وأول دخولهم أرض مصر كان يوم عيد.. تأمل شطا الجيش وذهنه يسترجع ما مر به من أحداث متلاحقة.

ها هو شطا، فتى القبط الذي أبلى بلاء أي بلاء، في يوم الفرما، إذ استعصى النصر على الجيش الفاتح، ليأتي شطا دالاً ومرشدًا لمواطن الخلل في حصن الروم، وإذا بالمسلمين ينقضّون ليوثًا ليتخطفوا جنود الروم بعد عون أهل الفرما لجيشهم، فما كان إلا أن فر الروم عنها.

ما لبث إلا يسيرًا وكان صدر شطا قد انشرح للدين الحنيف، وسط فرحة الجيش المسلم الذي كان لتوّه قد انتقل للإعداد لمرحلة قادمة.

لكم يكره شطا الروم! حقيقة لا تقبل جدلاً.. بل إنه لم يجد غضاضة في أن يعلنها، وأمام خاله المقوقس يوم أن زار

قصر أبيه في دمياط.. تمر ذكرى ذاك اليوم على شطا فتترك ألمًا من العسير على الأيام أن تزيله.

- خالي.. لقد قررنا أنا وشطا الزواج.. أفلا تبارك زواجنا؟

بدلال قالتها أورمانوسة على حين غرة من الجميع.. ذهل المقوقس للحظات قبل أن يقول مستسلمًا:

- دومانتيوس.

ثم تابع وقد استعاد رباطة جأشه:

- قطعًا تدركون موقفي أبنائي.. لقد أعلنوها صراحة في مجلس القيصر نفسه بأني أوالي العرب عليهم.

تملك بعض القلق شطا، فتساءل بحذر:

- وبمَ كان ردك؟

- لقد قلتها صريحة.. أبطلت حججهم.

تملّكه أسى قبل أن يتابع:

- سألتهم أمنكم من اضطهد القبط مثلي من قبل!

شعر شطا بغصة في حلقه إثر إدراكه لمعنى كلمات خاله.. فلقد كانت سعادته أيّما سعادة وهو يحاول أن يبدل قرارات خاله، لتصب في نهاية المطاف في صالح القبط.

حتى لقد بلغ خبر ذلك الفتى القبطي الذكي العنيد إلى قصر القيصر نفسه، فأحجم عن فكرة وليدة بأن يوليه خلفًا لخاله.. ذلك الفتى الذي اكتسب محبة أهل مصر من

أقصاها إلى أقصاها، فصار خطرًا حقيقيًا على ملك الروم بمصر.

ساد الصمت لبرهة في المكان قبل أن يقول المقوقس بيأس:

- أخشى أن يعزلني القيصر، وحينها سيولي صديقه الرومي دومانتيوس.

أثارت كلمته الأخيرة حفيظة شطا، فاستشاط غضبًا وهو يقول:

- ليدرك حينها من هو شطا بن الهاموك.. لأنكلنّ بهذا الدومانتيوس بما يشفي غليل القبط من روما.

تأمل ملامح قلِقة ارتسمت على محيا خاله، إلا أنه تابع: لتعلم أن لا مقام بعد اليوم للروم بأرض مصر.

- أويدخلها العرب؟

- ما للمسلمين والروم؟! إن هم إلا قوم أرادوا نشر دينهم.. ثم بعدها لكم دينكم ولي دين. وهل دعوا إلا لـ"لا إله إلا الله"؟ فمن تبعها فبها، وإلا فلهم ما لنا، وعليهم ما علينا.. ما رأيت إلا أن هذا نهجهم بأرض الشام.

- إن أرادوا إلا أن يقضوا على دين المسيح بأرض مصر.

- إن من لم يقض على دين المسيح بأرض الشام.. أتراه فاعلها في مصر؟

ثم تمتم شطا بخشوع:

- {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}. أعلمك يا حاكم مصر أن لا بقاء للروم بعد اليوم بأرض مصر.

تأمل شطا وجوه الحاضرين، وأردف:

- سألتحق بجيش العرب في الفرما لأكون لهم عونًا ومددًا.

وحانت التفاتة منه إلى أورمانوسة، فنطقت عيناها اللتان اغرورقتا بالدموع بما أراد لسانها أن ينطق به.. قالتها بلغتهما الخاصة الفريدة التي ألفاها مذ كانا صغارًا، رددت عيناها ما نطقته مرارًا قبلاً:

- شطا.. ثق بأنني سأكون لك ولن أكون لغيرك أبدًا.. سأنتظرك يا شطا وإن طال الانتظار.

ولكن -والحق يقال- انتظار أورمانوسة لم يدم طويلاً، فإنها سرعان ما اختارت.

وللعجب فقد اختارت دومانتيوس!

كيف؟ ولِم؟ أسئلة كثيرة تلك التي ضجّ بها عقله لفترة يسيرة نوعًا.. لكنه سرعان ما تناساها في خضم الأحداث.. أورمانوسة تدرك جيدًا كيف سيكون وقع قرارها عليه، ومع ذلك اتخذت القرار دون حتى مبرر أو سبب طفا على السطح.

إذن فلقد انتهى الأمر.

تدافعت تلك الذكريات إلى ذهن شطا، قبل أن يقطعها يونس بقوله:

- لقد وجدوا أورمانوسة في الفرما.. فلقد كانت هاربة من دومانتيوس.

نظر شطا بدهشة إلى يونس، ولكن عقله سرعان ما رتّب الأحداث، فتجلت له الصورة كاملة.

ما إن ترك شطا دمياط حتى أعلنت أورمانوسة أنها وافقت على الزواج من دومانتيوس. لم؟ وكيف؟ لا يعرف، ولم يعد يهمه أن يعرف.

ثم تراجعت من جديد، وحينها لم يكن هناك من بد إلا الفرار، ولأن قصر المقوقس ليس بمكان مناسب لمثل هكذا فعل، فليس هناك سوى أقربائهم في الفرما.

تلك الحمقاء أغفلت أن جيش العرب على مقربة من المدينة، ومع بداية الحصار تعثرت العودة وصارت سرابًا.

ثم هرب دومانتيوس.. أحداث متعاقبة متتابعة أدّت في الأخير إلى أن وجد جيش العرب أورمانوسة في قصر الحاكم بكل تأكيد.

تساءل شطا قلقًا:

- وماذا قال القائد عمرو بن العاص؟

قال يونس متخابثًا:

- لقد أمر بإعادتها إلى دمياط تحت حراسة من المسلمين،

فالقائـد لا يـزال يذكـر أن المقوقـس خالهـا أحسـن اسـتضافة وفـد النـبي -صـلى الله عليـه وسـلم- مـن سـنين.

أطرق شطا برأسه غير مبال:

- وبعد؟

- سـيدى عمـرو يسـألك إن أردت أن تكـون في موكـب الحـراس (ارتسـمت لوهلـة ابتسـامة خبيثـة عـلى محيـا يونـس قبـل أن يتابـع): فبِـم أرد عليـه؟

- أسألتْ أورمانوسة عني؟

- لا تتوقـع منهـا هـذا يـا شـطا؛ هـي أنـثى عـلى كل حـال، وفي الأخـير هـي ليسـت مضطـرة إلى مثـل ذلـك.

- وأنـا لسـت مضطـرًا لأن أكـون في الموكـب.. قـل للقائـد إن شـطا يعتـذر ويطلـب العفـو مـن هـذه المهمـة، وإن فكـره الآن مشـغول بالمعركـة القادمـة.

فغـر يونـس فـاه، وقـد ارتسـمت عـلى محيـاه أبلـغ آيـات الذهــول.

فتابع شطا:

- أتـدري يـا يونـس؟ حـين كنـت صغـيرًا أهـدى لي والـدي صليبًـا رائعًـا.. كنـت أحبـه.. أصطحبـه أينمـا ذهبـت.. كنـت أراه لا يُقـدّر بثمـن.. بـل كنـت مسـتعدًا أن أفقـد حيـاتي عـلى ألا أفقـد هـذا الرمـز الغـالي.

شعر بغصة في حلقه قبل أن يتابع:

- لقد انزلق الصليب يومًا من يدي ليسقط على أرض صلبة، فتناثرت أجزاؤه وتحول إلى فتات.

بدا الجزع على محيا يونس إذ أدرك ما يعنيه شطا، الذي تابع:

- لم يعد صليبًا مقدسًا يا يونس.. تلك القطع المتناثرة لم تعد تخصني.. لم تعد لي.. أوتعلم ماذا فعلت بعدها؟

رفع عينيه لتصطدما بعينيّ يونس اللتين اغرورقتا بالدموع، ولكنهما أبتا أن تقطر منهما دمعة واحدة، ثم أردف:

- لقد جمعت تلك الأجزاء ونحّيتها جانبًا، ثم انطلقت أبحث عن صليب جديد، فهو ما انزلق من يدي أولاً.

التقت عيناهما لوهلة، وتابع شطا:

- يونس، من أجل هذا الدين نحيا.. ومن أجل تلك الأرض نقاتل.. تلك الأرض قد انتظرت الكثير يا يونس.. تلك الأرض التي خطاها من قبل موسى ويوسف -عليهما السلام- تلك الأرض التي ذكرها نبينا محمد.. تلك الأرض التي باركها الإله منذ خلقها.. قل للقائد، فلترجع أورمانوسة للمقوقس، فإن شطا ليس بعقله الآن سوى تنيس.. تنيس فحسب.

*****

تنيس.. ملحمة الملاحم، لربما نسيناها، تجاهلناها، ترنمًا بفتوح الفاتحين، ولكن عند تنيس تتوقف الكلمات.

يوم ليس كأي يوم، فقد اشرأبت أعناق أهل مصر لترى بعين الواقع ما قد يعدّه البعض ضربًا من خيال، فهناك في تنيس دارت معركة بين جيش العرب القادم من شبه الجزيرة، والذي تلقّى عونًا من أهل القبط، ذلك الجيش الذي التقى حامية الروم في تنيس، التي انضم إليها مدد غير يسير لتحصين المدينة، ولكن ما دفع للعجب أن قائد الجيش الرومي لم يكن إلا أحد القبط، بل لقد كان الهاموك حاكم دمياط ذاك الذي يدفعنا إلى القول بأن شطا في أول معركة يخوضها بعد إسلامه يجد نفسه وجهًا لوجه أمام أبيه. أبوه الذي كفر، الأرض والنيل وإرثًا ثقيلاً حمله عبر التاريخ آباء عظام، لينضم إلى الروم الذين طالما ساموا القبط خسفًا، ولقد انقشع الغبار ليرى الجميع ضروب القتال التي أبداها هذا الفتى القبطي في المعركة، وما إن تبدى له في الأفق فترون حتى اتجه إليه مناديًا:

- هلمّ عبد روما الآبق.

ولم يدر فترون إلا بيسرى شطا تنزعه من جواده، وسيف يمر على رقبته، فأرداه شاة ذبيحة. سرعان ما أفضت المعركة لنصر مؤزر، وككل المعارك لا بد أن يسقط الشهداء، ولكن أبرزهم هذه المرة كان فتى مصريًا.

مصري واسمه شطا..شطا بن الهاموك.

*****

تململ من بين رجاله يبغى الخلاص.

- أو تسلموني بأيديكم إلى جند العرب؟!

قالها الأرطبون محتجًا.

أجابه أحد الرجال هازئًا:

- إنما حماقتك ما ألقانا الهلكة!

اتسعت عينا الأرطبون، وكأنما لم يعِ الكلمات، أو يستنكف أن يعيها.

ها هي حماقته أسلمت مصر إلى جند العرب.. أو ليقلها صراحة لعمرو بن العاص من أذاقه الويلات!

أوقد فررت منك في أرض فلسطين لتتبعني ها هنا؟!

ثم ها هو الأرطبون مؤجج الفتن ومشعل النار كسيرًا ذليلاً، يسلم كبند في الاتفاق لتسليم المدينة!

كان يعلم أن القبط لن يكونوا مع الروم بحال.. لكنه لم يتصور أبدًا أن يميلوا لجند العرب كل الميل.. ولم يكن ليتخيل أن عمرو ليستولى على حصن بابليون وينتزعه منه هكذا، بل والأدهى ينتزعه هو نفسه -ويالالأقدار!- بيد رجاله الذين أرادوا الخلاص فوجدوه لدى عمرو.

رأى عمرو من بعيد وقد ارتسم على ملامحه زهو المنتصر، وأحاطه رجاله بفخر الفاتحين، وقد تناهى إلى مسامعه صوت أحد رجاله يقول بصبر نافد:

- ها هو الأرطبون نسلمه إليكم، وأرانا قد فعلنا ما

اشـترطته يـا قائـد العـرب!

- كلا لا يكون.

تململ الأرطبون مزمجرًا، ثم تابع ثائرًا:

- لن يتسلمني هذا الرجل أبدًا.

قال عمرو وابتسامة عذبة لم تغادر محياه:

- هل أبصرت عاقبة الغدر يا أرطبون؟

- انتصرت عليّ يا عمرو!

استغل ما بدا من رجاله من تراخٍ، فانتزع خنجره الذي غرسه في فؤاده، وهو يقول بصوت واهن:

- لن تتسلمني يا عمرو أبدًا.. بيدي.. لا بيد عمرو.

ثم سقط مضجرًا بدمه هناك.. عند حصن بابليون.

*****

- هون عليك يا أمير المؤمنين شد ما بلغ بك الجهد.

قالتها عاتكة وهي تجيل بصرها في وجهه، إذ علاه السواد إثر ما نزل بالمسلمين هذا العام.

أطرق صامتًا، فتابعت:

- ما تبرح تتعب نفسك ليلاً ونهارًا.. بل وقد بلغ بك أن

تمضي إلى مطبخ المسلمين حتى تنظر كيف نصنع وتتفقد بنفسك.

صمتت لبرهة تستنطقه، ثم تابعت:

- أولا يكفيك أني وأم المؤمنين حفصة وأم كلثوم هناك نتولى هذا عنك؟

استمر في صمت ثقيل على نفسها، فقالت برقة:

- والله يا ابن العم إني راضية بما عزمت عليه من أن أرتحل إلى دار أم كلثوم، حتى نُفرغ الدار للقادمين من قبائل العرب.

نظرت إلى عينيه تراقب رد فعله وتابعت بعزم:

- والله لولا قرابتها من رسول الله، ما أجزت لك ذلك، ولولا ضيق الدار وأنك ستسكن المسجد ما كنت ضقت بالأمر من قبل.

- شد ما أنت صابرة محتسبة يا ابنة العم.. يا ريحانة القلب.

قالها بهدوء ورقة، فأشرق وجه عاتكة إثر سماعها لصوته، وكادت تيأس من استنطاقه، فقالت:

- يا أمير المؤمنين قد جاء أبو عبيدة بابل من الشام، وجاء معاوية بابل من قيسارية، وكل محمّل بالخير، فقد رفع ذلك عن المسلمين بعض البلاء، فهلا أرحت نفسك؟

- والله إني لأخشى أن يسائلني الله عما ألمّ بالمسلمين غدًا،

فقد مات في هذا الأمر خلق كثير.

- وها قد جمعت إليك القبائل، وكنت لهم ردءًا.. ثم خفف الله عنك فقل الموت.. فاستبشر بفرج من الله قريب.

تفرّس ملامحها ثم قال بإشفاق:

- والله لقد خشيت على نفسي يا عاتك.

- هون عليك يا عمر.. أما يكفيك أنك حرمت السمن واللحم على أهلك ونفسك؟! أفلا ترى كيف تغير وجهك من الجهد؟!

تململ عمر قبل أن يقول بجد بادٍ على وجهه، إذا طاف بذهنه خاطر ما غاب:

- لقد تأخر ابن العاص في شأن الفتح.

ثم أطرق مفكرًا.. وكأنما انفصل عن نفسه، فقد كان يفكر بعمق.

*****

انسابت موجات البحر مزهوّة فخورة، على رمال الشاطئ.

ثم سرعان ما انزلقت لتعود أدراجها، تهيم فخرًا على مثيلاتها بما نالت، ولقد بدأت منافسة محمومة بين قطرات المياه أيها يلحق بالموجة التالية.. في وقت تلامست فيه ذرات

النسيم تعطر الجو بعبق ساحر فريد.

الإسكندرية هي.

درة البلدان وإشراقة الدنيا.. تطالعها شمسًا -كل صباح- تزهو بما اطلعت عليه من إبداع الله في خلقه.. ويرسل إليها القمر أشعته الفضية تباشر سحر الكون في حياء وغبطة.

وقدور راسيات تحمل ما جادت به الأرض من خير.

وبشرى ترتسم على وجوههم أعذب الابتسامات، تفيض بالأمل وتبشر بالغد.

- حتمًا ستكون فرحة أمير المؤمنين كبيرة ببشرى الفتح.. خصوصًا بعدما استغلق واستطال.

قالها عبد الله بن عمرو بفرح حقيقي، فانتبه إليه عمرو بن العاص، قائلاً بلوم:

- إنما يعنيك فرح أمير المؤمنين دون ما لاقاه أبوك.

- هو في سبيل الله يا أبت.

- هو في سبيل الله إن شاء الله.. ولكن قد رأيت كيف استبطأ أمير المؤمنين الفتح حتى راجعني فيه ثلاثًا، وحتى قال إنه بما أحدثتم.

- ولكن قد استبطأنا حقًا يا أبت.

بدا الضيق على محيا عمرو، فقال:

- ويحك يا ابن ريطة! إنك لتقول قوله وهو غائب وأنت

حاضر.. بربك هل رأى المسلمون من قبل مثل هذه المدينة بحصونها ومناعتها؟ والله لولا القبط وما أعانونا عليه من أمر الروم لبقي الروم فيها أبدًا.

- نعم، وحسن رأيك، إذ استملت كبير القبط بنيامين إلى الصلح، فما إن سمع القبط بذلك حتى قالوا نحن مع بنيامين، ثم لم يجد الروم على ذلك سبيلاً.

- بلى، وما رأى عمر أن أقيم على المدينة حامية من جندك، ثم انتشروا فافتحوا باقي القطر.. فما أفلح تحصنهم ومددهم وقد أحيط بهم من حولهم.

- وكأنه بيننا يا أبت يشهد ما نشهد ويلاقي ما نلاقي.

- نعم الرجل عمر! ستكون فرحته كبيرة بما يصل إليه من بشرى.

أدرك أنه انتهى إلى حيث ابتدأ ابنه، فالتفت إليه وقد تبادلا ابتسامة عذبة.. ومن القلب.

*****

ولقد مضى الطيف المقدس.. ولقد أضاء لنا الظلام.

يا أيها الفتى المبجل.. يا من أذل اليوم قيصر.. يا أيها الشعب بدد الظلمات، نادى بأن يا نصر الله أقبل.. يا فاسق الرومان ارحل.. أذّن بروما بأن مصر اليوم صارت من

بـلاد الله مـا عـادت لتُقهـر.

أذّن بروما بأن تلك الأرض قد صارت جحيمًا ليس يرحم.

ولقـد تهـاوى اليـوم بابليـون، وقـد دوى الأذان بـأرض مـصر بـأن الله أكـبر.. وطـف بالإسـكندرية، فلقـد تـلاقى اليـوم حواريـو المسـيح وأصحـاب محمـد، وبـأرض آمـون تلاقـت أصـوات الأذان وأجـراس الكنائـس في صـوت مقـدس، واليـوم نـادى بـأرض مـصر أن يـا عـدو الله ارحـل.

-١٠-

أطـل الليـل كئيبًـا عـلى دمشـق.. فسـيف الله عـلى فراشـه يقـاسي المـرض.. وقـد اعتـلى فرسـه النعمـان بـن مقـرن يصـول هنـاك في نهاونـد.

زحـف الألـم إلى وجـه خالـد، وإن كان ألـم روحـه أقـسى وأمـرّ، إذ فاتـه فتـح الفتـوح.

- أفحـين أذن لي أمـير المؤمنـين بالالتحـاق بالجيـش ألـمّ بي المـرض؟!

- لا عليك يا خالد.. سيبدلك الله خيرًا من نهاوند.

- ما بعد نهاوند من فتح خير منها.

أشرق في روحه الأمل، فتابع:

- أنّى ذلـك وقـد أبى أمـير المؤمنـين أن يقـول سِر يـا أبا سـليمان، فافتـح الدنيا.

نظر إلى عينيها بفرح طفولي وتابع بحماس:

- ويسـير خالـد بجيـش المسـلمين فيفتـح بقـاع الأرض.. فينقض عـلى القسـطنطينية، ومـن بعدهـا عـلى الـترك والصين.

اشرأب عنقـه وكأنمـا يراقـب مـا حققـه الجيـش في نهاونـد ومـا

لاح مـن نـصر!

قبل أن يلمح دموعًا مارقات من عين أم حكيم، فقال:

- من لي بنهاوند وقد سبقني إليها الفرس!

عـاوده الشـعور بالألـم، وإن تبـدّى أمامـه وجـه ثابـت يـوم مؤتـة، إذ مـد إليـه الرايـة: هلـم يـا خالـد خـذ الرايـة.. واللـه مـا تناولتهـا إلا لـك.

ولقد تردد خالد وقتها، حتى علا صوت ثابت في الأفق:

- أترضون بإمرة خالد؟

"أخذ الراية سـيف من سيوف الله»، هكذا قال رسول الله!

*****

- رحم الله أبا بكر؛ كان أعلم بالرجال مني!

لقـد آلمـه أن تخلّـف خالـد عـن نهاونـد إثـر مرضـه، أفحـين يـرضى عنـه ويصـير مـا بينهمـا حبًـا خالصًـا يمنعـه المـرض؟

تذكـر كلمـات خالـد أنـه يعـني بالحـب النسـاء، فارتسـمت الابتسـامة عـلى وجهـه قـسرًا.

- اللـه يعلـم مـا عزلـت خالـد عـن غـدر ولا خيانـة، ولكـن ألا يفتـتن النـاس بـه، فيقـول الـولاة فعـل ذلـك بخالـد فمـا يمنعـه عنـا!

نعم الرجل خالد!

رحم الله أبا بكر!

ابتسامة أخرى وجدت طريقها إلى محيا الفاروق، ولكن هذه المرة إثر تذكره كلمات الصديق:

- لأذهبن وساوس الروم بخالد!

فلقد أذهب الله وساوس الروم، حتى بات هرقل لا يأمن على نفسه بالقسطنطينية!

*****

دموعٌ، أم نواحٌ، أم بواكٍ في دجى الليل القريب؟! ليس يعنيه الصياح.

سوف يرحل عن قريب عن بلاد الشام، عن مكة، حيث جال هناك طفلاً، عن المدينة يوم رحل إليها مسلمًا، يوم تلقته هناك ابتسامة عمر!

- أخبروا أمير المؤمنين أن وصيتي إليه، أن داري بالمدينة صَدَقة.

تناهى إلى مسامعه بكاء مكتوم، وقد جال ببصره فيمن حوله وكأنما آخر العهد ثم تابع:

- فليس لي في هذه الدنيا سوى عمر! آه ثم آه يا عمر، ذاك

نسيج وحده قد أجبرني حبه.

ثم ارتسمت على محياه ابتسامة حزينة:

- حتى إن كان يعني بالحب النساء، فإني أحب عمر.

لم يدر أفارقت الكلمات شفاه، أم أنها استقرت في روحه فطاب لها المقام!

علا صوته إذ تذكر نهاوند، وإذ استبشر منه النصر، وقد بدا أن الرحيل حان:

- والله لقد شهدت كذا وكذا زحفًا، وما في جسدي موضع إلا وفيه ضربة بسيف أو طعنة برمح أو رمية بسهم، ثم ها أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير.. فلا نامت أعين الجبناء!

ولكن يبدو أن أعين الجبناء ليس لها أن تنام، وأنه قدّر لعين خالد أن تقر أخيرًا!

*****

- يا أمير المؤمنين عزاؤك في خالد أنه قد جاء نعيه من حمص!

من قالها؟ أوقد قالها؟ أواقع هو أم سراب؟

تراه رحل؟

أفحقًا رحل الطيف النقي؟!

رحل سيف أمضاه الله في جيوش عدوه!

في ركاب الجنة أنت يا أبا سليمان.. محمولاً إلى الفردوس حيث غنيمة المعارك!

وجدت الدموع طريقها إلى وجنتيّ الفاروق وقد ارتسم على محياه أقسى آيات الألم، في حين انطلق لسانه:

- لا حول ولا قوة إلا بالله، رحم الله أبا سليمان!

"لا أعرفنك بعد الموت تندبنى وفي حياتي ما زوّدتني زادي!".

أوَقد قيلت؟

أفصدقًا حدث الخطب؟ إلى جوار رسول الله يا سيف الله!

في أرض خضّبتها دماء الشهداء مثواك، وفي تراب أرض تُوارى.. أرض فتحتها أنت!

"أنت خير من ألف ألف من القوم إذا حاكيت وجوه الرجال.. أشجاع؟ فأنت أشجع من ليث غضنفر يذود عن أشبال.. أجواد؟ فأنت أجود من سيل غامر يسيل بين الجبال!"،

انسابت إلى مسامع عمر، في حين تمثل وجدانه خالد.. لا يعنيه حقًا من قالها وإن انطلق لسانه:

- صدق، ذاك أبا سليمان ما نقص عن ذلك!

- يا أمير المؤمنين، هلا أرسلت من يزجر نساء آل مخزوم؟!

فقد علا صوتهن بالنواح!

نظر عمر بوجل إلى القائل.. ثم أرسل بصره في السماء، وقال بألم استقر في الروح:

- دعهن، ما على نساء الوليد أن يبكين، على مثل أبا سليمان فلتبكِ البواكي!

*****

استطال عنقه فخرًا حين علم بالأمر.

لقد اختاره الملك ليحمل رسالته إلى حاضرة الدنيا وعاصمة المسلمين، ويا له من فخر، أي فخر!

سيطأ بقدميه هاتين بلاط خليفة المسلمين، ذاك الذي تترنم بعدله الدنيا وتنشد باسمه الأناشيد.

ربما اعتراه بعض من خيبة الأمل حينما وطأ المدينة، ولكن عجبه كان أشد!

من هذه البيوت الفقيرة خرجت جيوش دوّخت كسرى وقيصر!

هذه هي التربة التي أنبتت خير جند الأرض وخير من ساس الأمم.

قلب بصره علّه يجد قصرًا، قطعًا سيقطنه الخليفة.. أعياه

الخطـب وأعيتـه الأعـين المتسـائلة بنهـم عـن ماهيـة هـذا الأعجمـي هنـا بـأرض العـرب!

صحبـه هـذا الرجـل وخـاض بـه طـرق المدينـة، ولـم تفارقـه الدهشـة، ولـم يرحـل عنـه العجـب.

بـل زاد مـا إن أشـار إلى ذاك مرقـع الثـوب النائـم، لا يعنيـه الكـون هنـاك في الظـل..

- "هذا هو أمير المؤمنين عمر".

هـل انسـابت تلـك الكلمـات إلى أذنيـه حقًـا؟ هـل نطقهـا الرجـل؟

اقترب واقترب، وقد أدرك مقدار جهله.

من كان يظن عمر؟ كسرى في ملكه أم قيصر على عرشه!

إنه عمر! أسطورة بلاد الشرق!

اقـترب منـه بخشـوع وقـد وطـأ بقدميـه البـلاط، في حـين ردد لسـانه كلمـات صـارت مثـلاً "عدلـت فأمنـت فنمـت يـا عمـر".

ولقد آمن عمر.. وأمن المسلمون.

*****

قد فاض الدمع مدرارًا فما بخل.. وهل الدمع إلا يسيرًا أمام جل الخطب وفداحة الحادث؟!

- ألا قد آن أن تستريح يا أمين الأمة وتتعبنا من بعدك؟!

جرح غائر تركه الرحيل.. وأشجان الفراق عسيرة لدى المتحابين.. فكيف بمن تحابا في الله فاجتمعا عليه وتفرقا عليه؟!

- كيف بي إن أتاني الأجل وقد كنت آمل أن أقول تركت أمة محمد لأمين أمة محمد، وما عليّ إلا قد أثقلت حملي في الدنيا وفي الآخرة، إلا أن يشاء الله؟ مصابنا فيك كبير.. جد كبير.

ثم طاف بالذهن بعض من آخر عهده به، فعاد الدمع يشق طريقه إلى وجنتيه وما كاد يجف! ربما وقع في نفس عمر يومها أن هذا آخر العهد، وإن أبى مليًّا أن يقر بذلك.. كيف بأذنيه لا تستمع بعد اليوم إلى كلماته الرصينة التي لا تبتغى سوى وجه الله سبيلا؟! كيف بعينيه لا تقر برجل تمنى عمر قبلاً بيتًا مملوءًا برجال مثله، يستعين بهم على حوائج المسلمين؟ فما كان له منه مثيل.. إن هو إلا رجل وحيد فريد.

- غيّرتنا الدنيا دونك يا أبا عبيدة!

ولكن أنّى لدنيا أن تغير قمم الجبال؟!

*****

- أقلني يا أمير المؤمنين.

بدأ الوجل على محيا حذيفة بن اليمان، وكأنما خشي شيئًا.

قال عمر بلهفة:

- أنشدتك الله يا صاحب سر رسول الله، ألا أخبرتني؟ هل ذكرني رسول الله -صلى الله عليه وسلم- في المنافقين؟

- ما كان لي أن أفشي سر رسول الله يا عمر.. أنت أدرى بذلك مني!

- بربك ألا أخبرتني؟ ما أريد أن تفشي سرًا أمرك رسول الله بكتمانه.. إن هو إلا أن تجيبني إلى طلبي.. إني خشيت على نفسي ما وليت من أمركم.

بدأ الإشفاق على وجه حذيفة، فقال وقد رق صوته واختنق صوته بالعبرات:

- أومثلك يكون في المنافقين يا أبا حفص، وقد كان إسلامك عزًّا، وهجرتك نصرًا، وخلافتك فتحًا؟ أولا يكفيك أن رسول الله قد مات وهو عنك راضٍ.

اهتز وجدان عمر إثر هذه الكلمة، وقد طاف بذهنه يوم أن سار مع النبي جنبًا إلى جنب، وإذا بالنبي قد أخذ بيده فهزّه الشوق، فقال:

- والله يا رسول الله لأنت أحب إليّ من ولدي ومالي والناس أجمعين.

ثم خشي أن يكذب رسول الله فاستدرك:

- إلا من نفسي.

حينها طالعه وجه النبي بابتسامة عذبة لامست فؤاده، إذ قال:

- لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك.

وضاقت نفس عمر إذ شعر بأنه لولا رسول الله لكان نسيًا منسيًا، وما هداه الله إلى ما صار إليه.. الله الله يا عمير؟ أبغير رسول الله أفكان هداك الله! فنطق لسانه بما جال بقلبه: فإنه الآن، والله لأنت أحب إليّ من نفسي.

إشراقة وجه النبي يومها ما كان لعمر أن ينساها ما امتدت به حياة، إذ قال بصوت ما زال يتردد في ذهن عمر:

- الآن يا عمر!

انتبه عمر إلى وجه حذيفة وقد علته ابتسامة مماثلة تُذكّره بسر رسول الله في المنافقين، الذي استودعه لحذيفة دون سواه.

- والله يا صاحب سر رسول الله، إني خشيت من أمركم هذا على نفسي.

بودٍّ وإشفاق قال حذيفة، وقد تفرّس قسمات عمر:

- والله لقد أتعبت الخلفاء من بعدك يا أمير المؤمنين.

- أخبرني عن الفتنة يا حذيفة.. فتنا كالليل البهيم.

تغيّر وجه عمر إثر ما ذكر.

-فمـا شـأنك بهـا يـا أمـير المؤمنـين؟! فواللـه لا تصيـب المسـلمين وأنـت حـي وإن بينهـا وبينهـم بـاب مغلـق

- أفيكسر الباب أم يفتح؟

خـشي عمـر حقًـا مـن جوابـه وأشـفق منـه وتغـير وجهـه، إذ قـال حذيفـة بـأسى:

- بل يكسر يا أمير المؤمنين.

وهنـا قـال عمـر بألـم حقيقـي بـدا مـع كل حـرف مـن أحـرف كلماتـه:

- ذلك أدعى ألا يغلق أبدًا حتى قيام الساعة.

ثم ردد بصوت خفيض لم يكد يصل إلى مسـامع حذيفة:

- اللهـم كـبرت سـني وضعفـت قـوتي وانتـشرت رعيـتي، فاقبضـني إليـك غـير مضيـع ولا مفـرط.

ثـم تبـادل مـع حذيفـة نظـرات أدرك كلاهمـا معناهـا، ولقـد كان أليمًـا.. أليمًـا.

*****

تراقصـت حـركات أياديهـم القلقـة ظـلالاً شـيطانية إثـر لهيـب مصبـاح وحيـد توسـط المـكان.

ارتسـمت الرهبـة في أعـين تلونـت بلـون اللهـب، وكأنمـا تـشي

عـن أعمـاق يشـتعل فيهـا الجحيـم ذاتـه.

تبادلـوا شـكًّا مقيتًـا وكأنمـا يحملـه جميعهـم في نفـس بـين جنبيـه.

ودارت الأعـين وتقلبـت الأبصـار، وإن أبى أحدهـم أن يعـترف بذلـك.

كان الصمـت عصيًـا منيعًـا، وقـد كـسره كعـب إذ قـال بصـوت جـاف خـالٍ مـن أي شـعور:

- أرى أن تُطفئوا المصباح لئلا يطرق بابنا عمر.

لمـح نذيـر غامـض ارتسـم عـلى محيـا فـيروز للحظـات، فارتعـدت فرائصـه، إلا أنـه مـد يـده ليطفئ المصبـاح وتغـوص الغرفـة في ظلمـات بعضهـا فـوق بعـض.

لنعـترف بـأن نظـرة فـيروز كانـت مرعبـة بحـق، إلا أن شـعورًا مقيتًـا نمـا في أعماقـه إثـر أن أظلمـت الغرفـة، وكأنمـا ذكّـره إخمـاد النـار بنـار أخـرى شـهدها تخمـد مـن قبـل، وتكـرر إخمادهـا آلاف المـرات في أشـنع كوابيسـه وأقسـاها.

ها هو فيروز اليوم في المدينة.

من الأهواز أسر.

ولأيادي العرب انتقل.

ومولى المغيرة أضحى.

يتفـرس وجـوه العـرب وكأنمـا يتفـرس وجـه عـدو قديـم لا يـدرك حقًـا لِـم عـاداه.

وتتسلل إلى وجدانه همسات بوران في ظلال النار المقدسة، وكأنما تشتعل تلك النار من جديد، ولكن في أعماقه هذه المرة.

بل لنكن أكثر تحديدًا ولنقل في فؤاده.

قاسية هي الحياة في المدينة.. حياة فارسي لم ينس أبدًا أن من هؤلاء من قتل أباه.

بغى قومه ما بغوا.. أو عدل العرب ما عدلوا.

هذا لن ينفى أبدًا أن هؤلاء الأعراب قد جاروا على ملك قد كان يومًا ملكًا عظيمًا.

وأنى يكن لعدل عمر وجه لدى فارسي قُتل أبوه، حتى إن كان أبوه نفسه لم يمنحه اسمه!

وأنّى يكن لعدل عمر وجه وقد رأى دموع أم -لم تمنحه أبًا شرعيًا- تسيل لملك قد انطوت صفحته؟!

تسللت همهماتهم القلقة إلى أذنيه.. هذا الهرمزان يقص عن خبر عمر اليوم، ولِم لا وهو صفيه الذي اختاره.. هذا الهرمزان وغد في الحقيقة.. أنّى له أن ينكر أن هذا الدين قد استقر في قلبه.. أحمق هو كذلك.. تراه ينسى، أم يتناسى مجده بالأمس؟ إن كان فيروز من نسل الأكاسرة، فعلى الأقل هذا الوغد قد كان أميرًا وقائدًا.. هل نسي كم أراق من دماء المسلمين في تستر؟ هل نسى ذله إذ جاء مكبّلاً إلى عمر؟

الأحمق غرّه أن عفا عنه عمر وقربه!

ولقد كان بمقدوره أن ينفذ ما يجتمعون له منذ زمن.. إذ ربما أنقذوا حينها الكثير من ملك فارس.. آه ثم آه على ملك فارس! أكل كبدى عمر.. ضاق صدره أكثر فهتف بضيق: أما عاد لنا من حديث إلا ماذا فعل عمر وكيف عدل وكيف ساس.. كيف زوّج ابنه لبنت بائعة لبن؟ وكيف جلد ابن واليه على مصر؟ عمر، ثم عمر، ثم عمر.. تترنمون بمجده كما يفعل أجلاف العرب!

انتبه بغتة لوجود جفينة وكعب، فحاول تدارك الأمر، إلا أن صوت الهرمزان كان عنيفًا:

- أما تكف أنت عن رعونتك يا فتى الفرس؟! فكيف كان حالك لو كان أبوك انتصر بالقادسية إذن؟! قالها ساخرًا.

ثارت ثائرة فيروز فانفجر قائلاً:

- على الأقل ثبت وواجه عدوه ولم يفر من ساحة القتال كما فعل الأمير المظفر.

تدارك جفينة الموقف:

- ويلكم! كيف بنا إن طرقنا عمر الليلة؟! فلنعد لأمر اجتماعنا وكفى قولكم الذي لا يضر ولا ينفع.

ابتلع الهرمزان كلمته وصمت.. إلا أن في ذهنه دارت آلاف التساؤلات.

ها قد خبت النار وذلل المجد.

حقًا يشعر بالبشر كلما رأى عمر.

يشعر بالفخر كلما أحس بأنه ينتمى إلى هذا الدين الحنيف.

حينما ينساب صوت الأذان بخشوع إلى أذنيه.

ولكـن يستسـلم أخـيرًا لسـياط مؤلمـة قاسـية إذا تذكـر ملـكًا غابـرًا داسـته خيـول العـرب، وشمسًـا باهـرة قـد أفلـت منـذ زمن.

ليعترف!

شد ما يعجب لسلمان!

تـرى كيـف رحـل هـذا الفـارسي عـن بـلاد النـار المقدسـة ورضي المقـام في أرض البـداوة.

كيـف طابـت نفسـه وقـرت وهـو يـرى ملـك أمتـه يـزول عـلى يـد هـؤلاء الأعـراب دون حـتى إن تدمـع عينـاه، بـل والأدهـى أن يرتحـل معهـم مـن نـصر إلى نـصر ويـرى بعينيـه انهـزام قومـه، فـلا يهـتز لـه جفـن.

ولكنـه -هـو نفسـه- يعلـم أي ريـح عاصفـة يحملهـا هـذا الديـن.. أي قـوة كاسـحة يوجدهـا إذا مـا خالطـت بشاشـته القلـوب، إذا مـا اسـتقر في الوجـدان فـتراه يعيـد تكويـن الإنسـان مـن جديـد، يلتمـس مثـل هـذه النفحـات.

يهتز وجدانه طربًا وتلين جوارحه إذا ما قال له عمر:

- إني والله أحبك يا هرمزان، فأنت أخي في الله.

يتأمل قليلاً.. يستدرك فيتدارك! ليدرك أنه حقًا يحب عمر!

ولكن هيهات.. أبدًا ليس مثلما يحبه سلمان.

فلقد تجرّد هذا الأخير من كل غرض، وما عادت تطوف بذهنه أوهام مجد زائل!

ما عاد يأمل في رؤية أبيه الدهقان يسوس الرعية ويفاخر بالنار المقدسة، لم يعد يعنيه ما خبت منها وما زال بزوالها.

النار التي تشتعل في صدر الهرمزان اليوم لهي أشد ضراوة من النار المقدسة وأشد أثرًا، فما عاد بإيمانه قادرًا على أن يعود سيرته الأولى، وأنّى له ثم أنّى أن يرتضي بدين حمله أجلاف العرب!

يرى في وجه فيروز ملامح من رستم فيزداد تحيّرًا.

أوليس بمثل تنافسهم زال ملك فارس.

ولكن أنّى لدينه أن يسمح له بمثل هذا الهاجس، أو أن يفاخر بمجد قام على نار مقدسة لم تغن عنهم من الله شيئًا؟ أنّى ثم أنّى؟!

أوليس الله بمتم نوره ولو كره الكافرون.

أنى لهذا النور أن يخالط قلبه ويضيء روحه.. أنى له أن يخاطب فؤاده ويشرق في قلبه.

ولكن إن كانت تلك حال الفارسي، فما بال عربي ككعب أو جفينة يجلس مثل هذه الجلسة؟

كعب؟

لم يجتمع مسلمان عربيان في هكذا جلسة، وإن كانا

يتشدقان بمسيحية أو يهودية ويدينان بها حقًا، فإن عمر قد فرض لبني جنسهما من بيت مال المسلمين.

يدرك الهرمزان أنه لن يفهم اليهود أبدًا.. ولكن يلزمه على الأقل أن يفهم ما يدور هنا، فقد فاته أكثره.. يسمع همهمات عن خنجر سيصنعه فيروز.. وعن عمر الذي أزفت نهايته، وعن... وعن...

حتّامَ هذه النار التي تحرق فؤادي؟!

أما آن لهذا الحصن أن يهدم؟!

أما آن لهذه الشمس أن تغيب؟!

ولِمَ لا يضيؤون المصباح؟! لِمَ؟!

*****

كان اللقاء سريعًا متعجلاً، فقد انتهى الأمر.

بدا القلق على محيا جفينة، وإن أراد الهرمزان أن يخفف عنه، إلا أن قلقًا مماثلاً قد نشب في صدره.

ربما كان أشدهم بأسًا هو فيروز، ولمثل هذا كان هو من تطوع لهذا الأمر الجلل.

يقلب بعضهم عينيه في وجوه بعض بقلق وحيرة وتساؤل حذر عن الغد!

غد لم تتضح ملامحه وضن بأي لمحة من لمحاته.

ربما لفت نظرهم انسحاب كعب باكرًا وقد أغبطه جميعهم، فعلى الأقل لا يعاني مما يعانون منه من قلق، إلا أن ما حدث كان غير متوقع بحال.

فقد طالعهم وجه عبد الرحمن بن أبي بكر، وتسلل إلى فؤادهم المضمر بالحقد صوته العذب وتحيته إياهم، فما كان من فيروز إلا أن تسلل خنجره وسقط أرضًا.

لحظات عصيبة مرت بالجمع، وقد أدركوا لوهلة أن أمرهم قد كُشف، وقد كادت نظرات فيروز تعترف بما أضمروا، إلا أن الموقف قد مرّ بغتة مثلما جاء وانتهى الأمر.

- ويحك! أما استطعت أن تمسك عليك خنجرك؟ فماذا تفعل غدًا إذا ما لقيت عمر؟!

قالها جفينة، فارتسمت الأنفة على محيا فيروز، وكأنما أبى أن يصدر مثل هذا القول عن عربي، فقال:

- صه.. أفلا نرجع ابن أبي بكر لنخبره بظنونك وشكوكك حتى يطمئن قلبك!

تدارك هرمزان الموقف، فقال:

- حسبكم من هذا الآن، فلننصرف حتى لا يأتينا ما نكره.. ولتكف عن خوفك يا فيروز فأنت تعلم هيبة عمر؟

تأمله فيروز وكأنما نفذ إلى أعماقه وأدرك أنه يريد لأمرهم أن يحبط، إلا أن بقايا من أنفة أمير فارس هي ما تمنعه من

الجهـر بذلـك.

تبادلوا نظرات حذرة، ثم انصرفوا كل إلى مبتغاه.

*****

صـافٍ الذهـن وقـد بـاشر اصطفـاف الصـف مـن خلفـه، ثـم كـبر للصـلاة.

لم يكن ليعلم قبلاً أن كلبًا عقورًا قد يحدث هكذا ألمًا.

تكـرر الألـم ثانيـة، ولكـن مـع الثالثـة أدرك يقينًـا أن مـا هـذا إلا طعنـة نافـدة قـد اخترقـت أمعاءه.

وظـل ذهنـه يبحـث بصـدق عـن كيـف يحفـظ للمسـلمين صلاتهـم، في حـين نطـق لسـانه:

- عقرني الكلب!

خـوف.. رهبـة.. تـردد.. ربمـا اجتمـع كل هـذا في نفـس فـيروز قبـل هـذه اللحظـة بدقائـق، ولكـن الآن هيهـات.. ربمـا تخطفتـه المشـاعر، إلا أنـه يـدرك أن مشـاعره مـا عـادت لـه منـذ زمـن.. ليـس مـن يـوم أسره في نهاونـد كمـا يدعـي، وإنمـا منـذ أن تسـللت كلمـات بـوران إلى أذنيـه لأول مـرة..

عمـر عـادل.. يعلـم هـذا يقينـا.. ويعلـم كذلـك أن مجـد فـارس الـذي يترنـم بـه مـا هـو إلا ظلـم مقيـم لمـن وجـدوا في عـدل عمـر مـا افتقـدوه لـدى جـده كـسرى، فعمـدوا بأيديهـم

إلى نـار زائفـة فأطفأوهـا.

ربمـا يعلـم أن الخطيئـة الـتي جمعـت بـين بـوران ورسـتم هـي سر تعاسـته، ولكـن لِـم لا يكـون عمـر كذلـك طرفًـا خفيًـا ولقـد قتلـه الآن، فهـل تـراه اسـتراح؟

قـد قتـل العـرب أبـاه، وهـا هـو يعيـد الكـرة عـلى مليكهـم عمـر.

هـل تـرى الفـارق كبـيرًا بـين مـن قتـل وجهًـا لوجـه في معركـة ومـن قتـل غيلـة وغـدرًا؟

أدرك لوهلـة أنـه أدرك مبتغـاه، ولكـن وقـت الهـروب قـد فات، فقـد التـف حولـه جمـع مـن المسـلمين أعمـل فيهـم خنجـره المسـموم بحقـده الدفـين، إلا أن سرعـان مـا أظلمـت الدنيـا مـن حولـه، فعقـر نفسـه بخنجـر طعـن بـه عمـر.

ويـا لـه مـن شرف أن يمـوت بنفـس الخنجـر الـذي قتـل ملـك العـرب!

حيـاة تنتهـي بمثـل هـذا ويظـل ذكـره في الآفـاق، ويـزور النـاس مقامًـا لـه في بـلاد إيـران.. نعـم الموتـة هي!

ولكـن هـل يؤمـن بهـذا حقًـا.. أم يـصر عـلى أن يخـادع نفسـه لآخـر نفـس انسـاب مـن جسـده.

ألـم عنيـف ذلـك الـذي اجتـاح جسـد عمـر.. إلا أن المؤلـم حقًـا لـو كان قاتلـه مسـلمًا عربيًـا.

فتنة هي خلفها عمر إن كان قتله على هذا الوجه.

تهاوى جسده الجريح، وقال بصوت حازم وإن بدا خفيضًا:

- صلِّ بالمسلمين يا عبد الرحمن بن عوف.. لا تفوتنكم الصلاة!

مضجرًا بدمه يقاسي الألم راقب صلاة المسلمين، وقد نما لديه شعور مشرق بالسعادة.

عاصمة تحمل النور لبقاع الأرض، ودعاة يحملون للعالم ما أسره المسلمون يومئذ بدار الأرقم!

- الله الله يا عمر!

ها هو ذاك الأعيسر الذي كان يرعى الغنم لخالته من بني مخزوم.. هذا الذي كان يقسو عليه الخطاب بصحراء مكة فيتعبه إذا عمل ويعنفه إذا استراح.. هذا هو الذي فعل بالمسلمين ما لم يفعله يومئذ مثله.. ها هو عميرًا قد صار عمر، وها هو عمر قد صار خليفة يسيّر الجيوش ويخضع الممالك ويهتز لبلاطه كسرى وقيصر.

أمير قد بلغ ملكه الآفاق.

ربما كان هذا قول أيًا كان في موضعه، إلا أن ما كان بذهن عمر كان مختلفًا بحق.

- ليت أم عمر لم تلد عمر.

وهنا غاب عن الوعي ولم تغب عنه صورة المسلمين أبدًا، كما لم تغب عنه يومًا.

*****

وكأنما كان وقع كلمات عبد الرحمن بن أبي بكر أشد من أن يحتمل، إذ قلب عبد الرحمن بن عوف بصره بينه وبين عبد الله بن عمر، قائلاً بحزم:

- إياك أن تخبر أمير المؤمنين بهذا الآن! فقد اشتد به الوجع ولا نعلم لم يفض بمثل هذا القول.

ابتسامة حزينة ارتسمت على وجه عبد الله، فقال:

- أتظن حقا أن فراسة عمر يفوتها أمر كهذا.

رعب حقيقي تمثّل على وجه بن عوف، فقال:

- وما أدراك يا عبد الله؟

أجاب بصوت اختنق بالعبرات:

- والله لقد رأيت مثلها في وجهه ولا أراه منعه عن ذكره إلا مخافة الفتنة.. غلبته دموع سالت من عينيه، وهو يتابع:

- لله أبي! يدفع الفتنة عن المسلمين ولو جادت بها نفسه.. ثم انتبه، فقال بحزم لعبد الرحمن بن أبي بكر:

- إياك أن تخبر عبيدًا بمثل هذا، والله لقد رأيت الشر على وجهه وأخشى أن يُغضب أبي بحماقة من حماقاته.

رنا إليه ابن عوف بحنوّ:

- أراه قد استقر قليلاً بعد أن أتيته من عند أم المؤمنين عائشة.

أومأ عبد الله برأسه علامة الإيجاب وهو يقول:

- بـلى، لقـد اسـتبشر إذ أذنـتْ لـه أم المؤمنـين بـأن يُدفـن بجـوار صاحبيـه، إلا أنـه أمـرني أن أعيـد اسـتئذانها قبـل دفنـه.

غلـب الحنـين عبـد الله، فعـاد إلى عينيـه الدمـع مـن جديـد، أطـرق ابـن عـوف حزينًـا إلا أنـه اسـتدرك:

- هـوّن عليـك، والله مـا اسـتقر أمـره إلا بعـد أن عهد إلى السـتة مـن أصحـاب الشـورى بالأمر.

- أولم يقل لك ألا تليها؟

- واللـه لقـد سـألته النصـح، فقـال أمـا إن سـألتني فـلا، فأقسـمت ألا أتـولى أمركـم أبـدًا.

- شـد مـا يحاسـب نفسـه أبي.. شـد مـا أتعبـت مَـن بعـدك يـا أمـير المؤمنـين.

ثم انهال دمعه من جديد.

*****

- الله يشـهد أنـك مـا أعطيـت الدنيـة في ديننـا يـا رسـول الله، ولكـن أخطـأ عمـر.. أخطـأ عمـر.

طافـت بذهنـه ذكـرى الحديبيـة.. ثائـرًا غاضبًـا، إذ قبـل النـبي بـشروط الصلـح.. ثـم تذكـر كيـف نـاداه النـبي، فقـرأ عليـه آيـات الفتـح.. انسـابت الدمـوع مـن عينيـه وردد بصـوت خفيـض:

- ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.

تخطّفته الذكرى واعتراه شعور عميق بالألم سرعان ما استحال إلى رضا، ففرح، ثم عاد الألم يدق روحه من جديد.. رأى عبد الرحمن بن عوف من بعيد، فقال بحزم:

- هل وعيتم وصيتي يا أصحاب الشورى؟! بربك لا تخالفوا عنها يا ابن عوف.

أجابه عبد الرحمن بودٍّ:

- هوّن عليك يا أمير المؤمنين.

- والله ما عدت اليوم للمؤمنين أميرًا.

أطلّ وجه ابن عباس بالبِشْر قائلاً:

- والله لقد فتح الله بك الفتوح.. ومصّر بك الأمصار.. ورفع بك النفاق.. وأفشى بك الرزق.. ولم يختلف على خلافتك اثنان.

- أبالإمارة تزكونني؟! والله ما أصبحت أخاف على نفسي إلا إمارتكم تلك!

بصدق قال ابن عباس:

- وبغير الإمارة.. فقد كان إسلامك عزًّا.. وهجرتك فتحًا.. وملأت الأرض عدلاً.. وقُتلت مظلومًا.

بإرهاق بادٍ حاول عمر النهوض، فأعانه عبد الله بن عمر حتى جلس، فقال:

- أتشهد لي بذلك يا ابن عمر رسول الله؟

أومأ ابن عباس برأسه إيجابًا وهو يقول:

- نعم أشهد.

بدا البِشر على محيا الفاروق، ولقد ظهر عليّ بن أبي طالب قرب الباب وهو يقول بودٍّ:

- وأنا معه أشهد يا أمير المؤمنين.

أشرق وجه عمر فرحًا وقد استند إلى ظهره وعلاه البشر.

*****

استند عمر إلى فخذ ابنه عبد الله وقد كان واهنًا بحق.. بصوت علاه الألم قال:

- إن أنا قُبضت، فاحملوني ميتًا واذهبوا بي إلى عائشة، وقولوا لها إن عمر يستأذن أن يُدفن إلى جوار رسول الله وأبي بكر، فإن أذنت فبها، وإلا فردّوني إلى البقيع.

غالب عبد الله بن عمر دموعًا مارقة انسلّت على خده:

- هوّن عليك يا أبي.. فقد وعينا قولك.

- ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.

بدا حزن دفين على محيا عبيد الله، وقد رأى ما يقاسيه أبوه وإن عجز لسانه عن النطق، فأجال بصره بينهما.

بودٍّ قال عمر:

- لتبلـغ أم المؤمنـين حفصـة أني راضٍ عنهـا، وأسـأل الله أن أفـارق وهـي راضيـة عـني.

بدا الإشفاق في لهجة عبد الله:

- آتي لك بها يا أبي؟

- الوقت جد قصير يا بني.. وما بقي مثل ما فات.

ثم تابع وكأنما يغالب نفسه على النطق:

- أشـهد الله أني راضٍ عـن عاتكـة.. نِعـم الـزوج ونعـم ابنـة العـم.. اللهـم إني راضٍ عـن أم كلثـوم، إليهـا أصـل إلى رسـول الله.

غالب عبد الله دمعه وقال ملهوفًا:

- وأنا يا أبي؟

جـال عمـر ببـصره في ملامـح عبـد الله وكأنمـا يتأملهـا مرتـه الأخـيرة:

- أنت يا عبد الله.. والله إني لأزهو بك في الآباء يا بني.

تأمل وجه عبيد الله، فقال بود:

- وأنت يا عبيد الله أفلا يهمك أن يرضى عنك أبوك؟

أطرق عبيد الله وقد أعياه الجواب، فقال عمر بلهفة:

- أتظن حقًا أني أغضب عليك يا بني؟!

غالب عمر دمعه وتابع:

- أفلا تعلم أباك حقًا؟ والله ما نالكم مني إلا إن أردت أن تخرجوا منها بخير.. والله لو خرجت منها كفافًا لا أجر ولا وزر، إني إذن لسعيد..تأمل اللهفة على وجه ابنه، فقال:

- والله إني راضٍ عنك يا عبيد الله.

لم يستطع عبيد الله أن يغالب دموعه، فتأمل أباه مليًا، ثم انسحب صامتًا.

أراد عمر أن يستطلع نظرة أخرى إلى عبد الله، وهو يساله:

- هل غربت الشمس؟

- كلا يا أبت لم تغب بعد.

- فضع خدي بالأرض.

- وهل فخذى والأرض إلا سواء؟

- ضع خدى بالأرض.

- يا أبت. (تململ عبد الله).

- ضع خدي في الأرض لا أم لك!

وما إن استقر خدّه على الأرض حتى علته الشفقة وطاف بذهنه ما طاف، في حين ردد لسانه بصدق، كما كان أبدًا:

- ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.. ويلي وويل أمي إن لم يغفر الله لي.. ويلى وويل أمي إن لم يغفر الله لي.

ثم غربت الشمس.. فقد كسر الباب.. إلى يوم القيامة.

# خاتمة

مـزدان المسـجد النبـوي في ذلـك الوقـت مـن العـام -وفي كل أوقـات العـام مـزدان- تغمـره أضـواء شـتى منبعثـة مـن المـكان ذاتـه، وتشـع فيـه أجـواء روحانيـة عتيقـة، تضفـي عـلى النفـس راحة.

طـال الأمـد الـذي مكثـه مصعـب في ذلـك الموضـع عـلى بعـد خطـوات مـن قـبر النـبي -صـلي اللـه عليـه وسـلم- وقـد زال عـن الوجـود -أو العـدم- فلـم يشـعر سـوى بكـفّ خشـنة حـان يربـت عـلى كتفـه، التفـت إلى الرجـل متوسـط الطـول، ببشرتـه المُشربـة بالحمـرة، وبصلعـة رأس أضفـت عـلى شـكله ملمحًـا مميـزًا.

اخترقتـه نظـرات عينيـه الواسـعتين شـديدتي السـواد، وقـد تبـدى لـه لوهلـة أن منكبيـه العريضـين قـد احتويـا الموقـف والمـكان، بـل قـل الزمـان.

حسـن وجهـه غـير لافـت، تسـلل عـبر الآبـاد صوتـه الـدافئ العميـق.

- لِمر الانتظار؟

وكأنما أمده الحدث بحكمة السنين، فانطلق لسانه.

- انتظر الراقد تحت تراب المجد، المسجي بشمول الفخر.

بهدوء ورصانة نطقها: لكن من ذهب لا يعود.

- الخطب عسير، والواقع علقم، والحدث اشتد.

تملكته عظمة المسجي عمر، فتابع:

- لن أمضي دونه!

ربت محادثه على كتفه من جديد، وبابتسامة واهنة قال:

- لكل عصر رجال، ليس الأمر عبثًا، وليس زمانك له!

- هنا مرقد النور وغروب الشمس. (غالب دمعة مارقة).

- على بُعد خطوات أشرف الخلق، (بخشوع تابع): الكون يمضي فلا ينتظر أحدًا، وصراع الظلمة والنور سرمدي أبدًا، يتكرر مع كل صباح ومساء ولا ريب، تلك حكمة الوجود وذاك شعار الكون.

- لسانك يقطر حكمة ويشع جلالاً.

بيأس ووهن قالها قبل أن يبرق أمل:

- لِمَ لا تأتِ أنت؟

اتسع الحدث فجأة لغلام لاهث:

- سيدي عليّ، مولاي عبد الرحمن بن عوف يخبرك بأنهم في انتظارك لبدء البت في أمر الشورى.

تابع عليّ بجد واضح:

- في كل زمان ثغر ليس له إلا رجاله، لِمَ لا تمض أنت؟

- أنا؟! (بدهشة بالغة نطقها).

أومأ عليّ برأسه إيجابًا:

- نعـم، اسـتدعاء الراقـد لا يجـدي، فلتنـشئ مجـدك ولترتـق سـلمك، ولتوقـد شـمعة ولتنتظـر الفجـر، فغـدًا سـيضيء النـور، ينبلـج صبـح، وسـتشرق شـمس.

بـدأ كطيـف ينسـحب، ينسـلّ عـبر الزمـان والمـكان، اخـترق الزحـام فألـف وجوهًـا معتـادة، قلّـب بـصره حـتى لمـح صديقـه الـذي قـدم معـه، فأشـار لـه إشـارة مفهومـة تعـني الانـصراف.

بعدهـا بدقائـق كانـا معًـا، خـارج المسـجد، يسـيران متشـابكي الأيـدي وصديقـه لا يفهـم شـيئًا.

- إلى أين؟ (تساؤل حائر صادق).

- إلى حيـث يـضيء النـور، إلى ذات كل فينـا، فلنوقـد شـمعة ولننتظـر الفجـر، فغـدًا يـشرق النـور.. ويـضيء الفجـر.

تمت بحمد الله

بتكتب رواية أو قصص أو مقال ..
بالفصحى، بالعامية أو حتى بالأنجليزى ..
بتحب تكتب ، أو تعرف حد بيحب يكتب ،كلمنا ..
هنعمل كل اللى نقدر عليه عشان نساعدك تحقق حلمك
وتكون كاتب معروف ..
لأن فى كيان ، للإبداع مكان ..


اتصل بينا على :
محمول: 01005248794 - 01001872290 - 01000405450
أرضي: 0235688678
www.kayanpublishing.com

وابعتلنا على :
info@kayanpublishing.com
kayanpub@gmail.com

وتابعنا :
kayanpublishing kayan.publish
kayanpublishing kayan_publishing